شعر محمد فضل إسماعيل الديني

دراسة موضوعية وفنية

د. محمد سمير عبد المعطي الديسطي
المدرس بقسم الآدب والنقد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بدمياط الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام علي سيدنا ومولانا رسول الله.. وبعد

فإن هذه دراسة عن الشاعر محمد فضل إسماعيل وبخاصة في شعرة الديني وهو واحد من شعراء العصر الحديث الذين تحاولوا مع أحداث العصر وعاشوا الآمة وآماله وعبروا عنها أحسن تعبير وسوف نكشف – بعون الله تعالي وتوفيقه – عن حياة الشاعر ونشأته وتعليمة وعوامل شاعريته وموضوعاته الشعرية وألفاظه التي اعتمد عليها وكذلك الصورة الشعرية والموسيقي ونكشف أيضا عن آراء النقاد فيه وعما توصلت إليه هذه الدراسة.

وأسأل اللّه سبحانه وتعالي التوفيق والسداد

﴿ إنه نعم المولي ونعم النصير ﴾

الفصـل الأول
محمد فضل إسماعيل المولد والنشأة والتعليم

محمد فضل إسماعيل – رحمه الله تعالي – شاعر (نجلته أسرة رقيقة الحال ببلدة (فاقوس) بمحافظة الشرقية في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٩٨م وكان أكبر أبنائها وما أن بلغ الرابعة من عمره حتي كان أحد الصبية الذين يترددون على (كُتَّاب) الشيخ إسماعيل حيث حفظ القرآن الكريم. ثم أنتقل به والده إلي مدينة (السويس) وألحقه بإحدى المدارس الابتدائية بها، وبعد حصوله علي (الابتدائية) لم يشأ ولده – رغم ضيق ذات يده – أن يكون هذا اليافع موظفا حكوميا – جريا على العادة المتبعة في ذلك الوقت، متمثلة بالقول المشهور المرذول : "إن فاتك الميري، اتمرغ في ترابه" !، بل أراد أن يُهيئ لابنه أُفقا متسعا في العلوم الدينية والفقه، على يد شيوخ الحلقات بالأزهر الشريف [١].

فلم يكتف الوالد لوالده بما تعلمه في كُتَّاب القرية، بل أراد له الاتساع في العلم والدين والنهل متهما وبخاصة في الأزهر الشريف على يد شيوخه الأجلاء "وبالفَعل تمَّ له ما أراد وبقي الفتي فضل عامين كاملين به، وكان لهذين العامين أثر بعيد في تكوين الشاعر وتوجيهه إلي تعشُّق علوم العربية وتذوق الشعر واهتدائه إليه لأول مرة منذ نعومة أظافره بعد أن أُتيح له التزود بالعلم الغزير، من فقه ومتون وشروح وحواش " [٢]

ولم يقنع بدراسة المقررات، فحسب بل كان يحضر حلقات الصفوف العالية، في سنه الغضة، ليشبع تعطشه الشديد للعلم والمعرفة، ويكتسب خبرة وافية في حقل الدراسات الإسلامية، وكل ما يتعلق بالقرآن والسنة والتفسير، وما تزخر به الحلقات من أدب وبلاغة.... وقد كان يعزو ما أطلق العنان لشاعريته وأرفادها بالديباجة الجزلة المشرقة والأصالة اللغوية إلي تلك الفترة، فترة دراسته بالأزهر رغم قصرها

(١) شعراء ودواوين – الأستاذ /أحمد مصطفي حافظ ص ٢٥٦– الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩٠م، وديوان محمد فضل إسماعيل شاعر السويس ص ٣ – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – القاهرة سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

(٢) المرجعان السابقان

نسبيا، واللبق اللبيب يفيد من العلم القليل، مالا يفيد الفدم الخامل من العلم الغزير في السنوات المتطاولة. " (١)

ولا شك في أن دراسة الشاعر في الأزهر الشريف كان لها تأثير كبير على شاعريته فيما بعد وصبغ نتاجه الشعري بالطابع الديني، ويتضح ذلك جيدا من خلال النظر الدقيق إلي شعره، فمثلا حين يقول رافضا هزيمة الخامس من يونيه سنه ١٩٦٧ (قصيدة أنا العربي): (٢)

لَغَـطُ النـار مهـد لـي الطريقـا ... فلست أهاب في النار الحريقا
فنيـرانُ العِـدا ليسـت بشـئ ... إذا الإيمـانُ كـان معـي رفيقـا
(فـإبراهيمُ) مَـرَّ بهـا سـلاما ... وعـاد يؤكـد العهـد الوثيقـا
فـديتُ المسـجَد الأقصـي بروحـي ... وبالـدم أفتـدي البيـتَ العتيقـا

نلحظ مزجه السياسة بالدين. وقد لاحظ ذلك – أيضا– على الشاعر عضوا لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وهما : الدكتور مختار الوكيل والأستاذ/ عامر بحيري.(٣)

ومع هذا كله كان الشاعر ذا ولع عظيم منذ نعومة أظفاره بالجندية وحمل السلاح كما يقول في مقدمة قصيدته (السودان في عدسة المصور)... ولهذا طلب اللحاق بالمدرسة الحربية في القاهرة (الكلية الحربية الآن) وهو في السادسة عشرة من عمره، فلم يوفق في هذا الغرض، ولكنه استطاع في آخر الأمر أن يلتحق بالمدرسة الحربية بالخرطوم، نظرا لأن والده كان من أبناء السودان ولما له من عمومة وأنساب في شتي نواحي السودان، وكان الطالب العسكري محمد فضل إسماعيل موضع إعجاب رفاقه وزملائه، فهو شاعرهم ولسانهم الصادق في ندواتهم ومجتمعاتهم، الأمر الذي أثار حفيظة قومندان المدرسة (الكولونيل بابتسون) وقتذاك وألب عليه مدير المعارف السودانية (المستر كروفوت) ووكيله (المستر سميسون)،

(١) شعراء ودواوين ص ٢٥٦، ٢٥٧
(٢) ديوان الشاعر ص ١٨٠
(٣) مقدمو الديوان

حيث تقرر بعد سنة من لحاقه بتلك المدرسة فصله من سلك طلبتها وإبعاده عن موطن أبيه وأجداده فورا، لما كان يبثه بين الطلاب من روح منافية لأوضاع الحكومة السودانية وقوانينها، وعاد الشاعر إلي مصر حيث التحق بمدرسة المعلمين العامة بالزقازيق وفيها تخرج مدرسا، وعمل في مدارس السويس حوالي أربع سنوات، كان في خلالها يتصل بكثير من رجال الصحف والأدباء والشعراء حتى أصبح موضع ثقة الدكتور/ (يعقوب صروف)، فعينه وكيلا مكاتبا للمقطم بالسويس[١]

- **الشاعر وجريدة الثغر الشرقي بالسويس**:

(بدأ الشاعر في نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره، وأول قصيدة نشرت له في الصحف كانت في عام ١٩١٤ وهي مرثية في (أندراوس مدور) وكيل قنصل فرنسا في السويس آنذاك وأحد أصدقاء والده.

وفي النهاية رأي الشاعر أن يستقل بنفسه فأصدر جريدة الثغر الشرقي بالسويس، وصدر العدد الأول منها في يوم الأحد ١٦ محرم سنه ١٣٤٣هـ – الموافق ١٧ أغسطس سنه ١٩٢٤م، وكان مقرها بسراي دائرة.... جليدان بشارع المحافظة بالسويس، وبصدر العدد مقدمة قال فيها مخاطبا الوطن :" أقف اليوم أمام جلالك أتغني على دوحة مجدك الرائع، أتقدم إليك بهذا القلم الذي أحمله بين أناملى، فلست أملك سواه من حطام الدنيا، هذا القلم الذي عرفت إخلاصه من قبل، سيظل كذلك حتي الموت، مداده الصدق، وصريره الحق" وهذا هو واجبي العام أمامك، إلاَّ أن لي واجبا خاصا بإحدى مدنك الكبرى وثغورك الزاهرة، هي موطني (السويس)، تلك المدينة التى قضى عليها الطابع السيئ أن تكون في ذيول المدن والثغور الأخري، في حين أنها مدينة التاريخ والعظمة، وصلة بلاد المشرق بالمغرب وواسطة التجارة بينها" [٢]

(١) السابق نفسه.

(٢) مقدمة الديوان ص ٤

فالشاعر هنا ليس شاعرا فقط، وإنما هو كاتب بارع، وأديب رائع يفيض لسانه وقلمه بلاغة وسحرا من خلال هذا التصوير الرائع الكاشف عن حبه الجم لوطنه، واعتزازه به وبمجده الرائع الذي يتغني ويترنم على دوحته الخضراء، بل إنه يُقَدِّم له أغلي ما يملك، يقدم له لسانه وقلمه، الذي ما تعود قط إلاَّ على الصدق والإخلاص والحق، فلم يكن في يوم من الأيام على غير هذه الحال، وهذا هو واجبه أمام وطنه، وواجب آخر خاص عليه تجاه إحدي مدن هذا الوطن، وثغوره الزاهرة، ألا وهي مدينة السويس، تلك المدينة التى قضي عليها الاستعمار الغاشم، وشوَّه صورتها الجميلة الرائعة، وجعلها في ذيول المدن والثغور الأخري، في حين أنها مدينة التاريخ والعظمة، وهمزة الوصل بين الشرق والغرب وواسطة التجارة بينهما بما فيها من منافذ وموان.

" وقد التزم الشاعر بعهده الذي قطعه على نفسه، فلم يتوان عن أن يكون جزءا لا يتجزأ من ثورة ١٩١٩ منذ اليوم الأول الذي نادي فيه (سعد زغلول) بالجلاء إلي اليوم الأخير الذي قال فيه سعد : "أنا انتهيت" وهو يوم احتضاره ومن الطريف أن الشاعر نشر بالعدد الثاني من (الثغر الشرقي) الصادر في ١٩٢٤/٨/٢٤م الإعلان التالي:

ديوان فضل تحت الطبع

"وقد شرعنا بعونه تعالي في طبع الجزء الأول من ديواننا حافلا بجميع القصائد والأبيات التى نُشرت لنا على صفحات الجرائد والمجلات منذ عشر سنوات، وبما أننا قد فقدنا كثيرا من القصائد السياسية المهمة، فنرجو كل من يَعْثُر على قصيدة لنا يتكرم بإرسالها لإدارة الجريدة (الثغر الشرقي) وسنرسل له نُسَخة من الديوان بعد طبعه مجانا".

- **ويقول جامع الديوان تعقيبا علي ذلك:**

وقد مضي على نشر هذا الإعلان أكثر من خمسة وأربعين عاما لم يقم الشاعر خلالها بنشر ديوانه، ولم يُرشد أحد إلي المصادر التى يمكنه الرجوع إليها لتجميع شعره، وعلى ذلك عانينا الأمرين في البحث بدوريات دار الكتب وغيرها حتى أمكننا العثور على بعض القصائد والأبيات اتفاقا، بعد تصفح آلاف الصفحات الأدبية بجرائد ومجلات : " (الأهرام، والمحروسة، ومصر، ووادي النيل، والبلاغ، والبلاغ الأسبوعي، وكوكب الشرق، والشبان المسلمين، والأهالي..... الخ) منذ عام ١٩١٤م حتي أوائل الخمسينات، حيث استقر الشاعر نهائيا بين ظهر انينا بالسويس، عند بلوغه السن القانونية في نوفمبر عام ١٩٥٨م.

وحين أشتدت وطأة الشاعر على الاستعمار ورجاله الذين كانوا يتولون بعض الوظائف العامة في الدولة في ذلك الحين، بنقداته اللاذعة بـ "الثغر الشرقي"، قامت السلطات بإغلاق صحيفته واعتقاله وتضييق الخناق عليه، فعاد مرة أخري يزاول مهنة التدريس" [١]

- **محمد فضل إسماعيل ورسالة التعليم:**

(١) السابق ص ٤، ٥

بعد أن أغلقت السلطات صحيفة الشاعر (الثغر الشرقي) وضيَّقت عليه الخناق على إثر نقداته اللاذعة، إتجه مرة أخري يزاول مهنة التدريس، ومكث بها اثنتين وأربعين سنة، تنقل فيها بين معاهد التعليم المختلفة، وقضي الشطر الأكبر في مدارس التعليم الحر (الأهلي والشبيه بالحكومي)، كمدارس جمعية العروة الوثقي بالإسكندرية إلي أن نقل إلي ديوان الوزارة عام ١٩٤٥م مفتشا للأناشيد بمناطق الوجه البحري والإسكندرية، وحين بلغ سن التقاعد قال: (١)

يقولون المعاش نذير موت ... فقلت جهلتمو مهني المعاش
فإن الموت يلقي كلَّ حيَّ ... كما يلقي ابن آدم وهو ماشي
أموت على المكاتب كل يوم ... فكيف اليوم أفزع من فراشي
كَسِبْتٌ لُقَيْمَتِي ستين عاما ... كما كَسبت لُقَيْمَتَهَا المواشي!
وداعاً يا وظيفة حيث إنِّي ... خَرَجْتُ من الممات إلي المعاش

إلاَّ أن الشاعر – رحمه الله تعالي كان متفائلا أكثر من اللازم، فلم يُعتمد له (معاش) من الدولة كما تخيَّل، إذ لم تُحتسب له مدة خدمته بالتعليم الحر، واقتصر الأمر على صرف مكافأة له عن مدة خدمته (الرسمية) بالحكومة، وبعد أن (تبخرت) هذه المكافأة الضئيلة في مدة وجيزة في أوجه خير يطول شرحها، فزع إلي نقابة المهن التعليمية بالإسكندرية التى كان عضوا بها، فقررت صرف معاش شهري قدرة أربعة جنيهات، إلاَّ أنَّ هذه الجنيهات كانت دون الكفاية فلجأ إلي مخاطبة السيد/ عبد الرحمن أبو العينين، وكبل وزارة الخزانة لشئون المعاشات، قائلا:

أبا العينين يا أمل الضعيف ... ورب المبدأ العالي الشريف
كأنك (يوسف الصديق) يحي ... (عجاف الدهر) بالحل اللطيف

(١) ذكر جامع الديوان أنه اطلع مؤخرا على هذه الأبيات بجريدة السفير منسوبة للشاعر محمود عبد الحي، وقد يكون المرحوم فضل (الشاعر) قد أنشدها متمثلا بها... لذا لم يُثبتها (جامع الديوان) ضمن قصائد الديوان.

وعلي إثر ذلك صدر قرار جمهوري بصرف معاش شهري استثنائي له قدره خمسة جنيهات.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن شاعرنا سبق أن ظفر قبل خروجه إلي المعاش برعاية وتقدير الدكتور/ طه حسين عام ١٩٥٠م أثناء توليه وزارة (المعارف العمومية)، بعد أن لمس ما هو فيه من غَبْنٍ شديد، وكان الدكتور/ طه حسين قد أزمع السفر للاستجمام بإيطاليا، بلدً (دانتي اللجيري) الشاعر الخالد الذي وضع الكوميديا الإلهية المشهورة (الجحيم – المطهر – الفردوس) فكتب الشاعر يقول له بلغة الأديب للأديب:

إلـــي أي المـــدائن يـــا ســـفين ... يغـــادرني ولـــي قلـــب حـــزين
أيرضـــي أنْ يكـون جحـيم (دانتـــي) ... مـــآلي وهـــو ســـخرية وهـــون
وفـــي الـــدنيا (نعـــيم) لســـت أدري ... متـــي أيامـــه – خطـــأ – تحـــبن!
لعـــل المـــوت موعـــدنا فأمســـي ... ولـــي جســـد يباركـــه الســـكون

وعند عودة الدكتور/ طه حسين من رحلة الاستجمام قال في الحفل العام الذي أعدَّه المعلمون لاستقباله في كازينو (سان استفانو) بالأسكندرية : " وعلى العهد لشاعركم الفضل، ألاَّ أريح ولا أستريح حتي يرضي.... وقد كان... إذ استصدر الدكتور/ طه حسين قرار من مجلس الوزراء بترقية الشاعر درجتين استثنائيتين (من السادسة إلي الرابعة)، إلاَّ أن الفرحة لم تتم، إذ عمدت الوزارة التى تولت الحكم قبيل الثورة إلي إلغاء قرار ترقية الشاعر، فعاد إلي قواعده بالدرجة السادسة.

وقد سرد جامع الديوان (الأستاذ/ أحمد مصطفي حافظ) كافة ما تَقدَّم للدكتور/ طه حسين لتجديد عهده بالشاعر حينما سعد بمقابلة سيادته بسكناه بفيلا (رامتان) بالجيزة مرتين، فلم يُنكر شيئا مما ذُكر عن واقعة ترقية الشاعر الاستثنائية.... وكان الدكتور/ طه حسين قد وافق على كتابة مقدمة لديوان فضل تحقيقا لرغبة الشاعر، إلاَّ أن ظروف سيادته الصحية لم تمكنه من إملاء المقدمة.

وعلى ذِكْر أُمنية الشاعر في أن يصدر ديوانه بتصدير من يراع عميد الأدب العربي فقد كانت له أُمنية أُخري غالية، بَاح بها في قوله لكوكَب الشرق (أم كلثوم) في حفل أقيم لتكريمها بالأسكندرية:

ما مات (شوقي) وقد خلدْتِ سيرته فهل أموت وما وسدت في الرجم
فَخلِّديني بلحن منك ينفعني إذا وقفت بباب الله ذي الكرم
لعل صوتك يوم الحشر يشفع لي فيما أُقارف من ذنب ومن تُهَمِ!

فأجابته (أُم كلثوم) ببديهتها الحاضرة المعروفة : (ولكني غنيت لشوقي بعد وفاته، إستني لما تموت يا (فضل) وأنا أبقي أغني لك ! [1]

- **محمد فضل إسماعيل وعوامل شاعريته**:

لا شك في أن للبيئة التى يعيش فيها الشاعر تأثيرا كبيرا على نفس الشاعر وكيانه وشاعريته، وكذلك الثقافة التى اكتسبها الشاعر لها تأثير كبير على شاعريته، فحين ننظر إلي الشاعر محمد فضل إسماعيل نجد عدة عوامل ساهمت في شاعريته بل وأثرتها وتتمثل هذه العوامل فيما يلي:

١-الموهبة الفطرية:

إذا نظرنا إلي فضل إسماعيل وجدناه بطبعه يحب الشعر منذ صغره ويميل إليه، فقد بدأ نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره وأول قصيدة نشرت له في الصحف كانت في عام ١٩١٤م وهي مرثية في (أندراوس مدور) وكيل قنصل فرنسا في السويس إذ ذاك وأحد أصدقاء والده، وهذه القصيدة لم يتيسر لجامع الديوان الاهتداء إليها لعدم ذكر الشاعر اسم الصحيفة التى نشرت بها.

وفي النهاية رأي الشاعر أن يستقل بنفسه فاصدر جريدة الثغر الشرقي بالسويس وصدر العدد منها في ١٧ أغسطس سنه ١٩٢٤ وكان مقرها بسراي دائرة المرحوم جليدان بشارع المحافظة بالسويس.

(١) مقدمة ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٥-٨ والمقصود بشوقي في الأبيات أمير الشعراء أحمد شوقي

وعلي ذلك فالشاعر نظم أول قصيدة له وهو في السادسة عشرة من عمره وبعد ذلك بعشرة أعوام أسس جريدة الثغر الشرقي لينشر فيها إبداعاته وإبداعات غيره من الأُدباء.

٢- الثقافة الإسلامية والعربية:

كذلك كان من عوامل شاعرية الشاعر عامل مهم جدا وهو عامل الثقافة الإسلامية والعربية، الثقافة الإسلامية التى بدأ نبتها لديه منذ الصغر حيث حفظ القرآن الكريم وأدرك بعض معانيه ثم صقلت الدراسة الأزهرية هذا الجانب فأصبح القرآن الكريم والثقافة الإسلامية يكونان نبعا رقراقا صافيا من القيم الإيمانية والمعاني القرآنية والأخلاق الإسلامية. هذا بالإضافة إلي الثقافة العربية الأصلية التى أَثْرت شاعريته وقد استقاها من منابعها الأصلية حيث درس اللغة العربية وتعرف على الأدب وحفظ الشعر قديمه وحديثه وذلك من خلال دراسته الأزهرية المتنوعة.

هذا وقد رَغَبَّ الشاعر إلي جامع ديوانه أن يبدأ في ترتيب مادة الديوان بشعره الديني الذي نبتت جذوره الأُولي في بيئة الأزهر الخصبة [١].

وقد لاحظ بعض الدارسين تأثير الثقافة الدينية على نتاجه الأدبي[٢]

ومن بواكير شعره في تلك الفترة قوله في قصيدة (إلي ذات الله العلَّية)[٣]

يـا مالـك الملـك يـا قيـوم سـبحانك ... قد جلَّ ذنبي فهب لي منك غفرانك
إنـي اتبعـتُ هـوي نفسـي فـواخجلا ... مـاذا أقـول إذا حكّمـت ميزانـك
مهمـا تعـاظم ذنبـي أو تملكنـي ... فـلا أُريـد بـه يـا رب عصـيانك
حسـبي بـذاتك إيمانـا ومعرفـة ... أنْ لَسْتُ أجحد في التوحيد سلطانك

(١) شعراء ودواوين ص ٢٥٦، ٢٥٧ بتصرف.
(٢) شعراء ودواوين ص ٢٥٦، ٢٥٧ بتصرف
(٣) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ١٧.

٣- الحرمان والبؤس والفقر والحاجة:

إن شعراء الحرمان في الأدب العربي – قديمة وحديثه – كثيرون وقد حفل الأدب العربي بذكر أُولئك الشعراء، فأورد كثيرا من قصصَ حياتهم ومن أشعارهم التى خلدوا فيها آلامهم وحرمانهم، والشعر العربي الحديث في مصر قد حفل بدوره بطائفة من شعراء الحرمان، عانوا من شظف كذلك وكانت لهم أشعار صورت آلامهم أصدق تصوير، وجمعت في كثير من الأحايين الملح والنوادر التى تخلقها ظروف حرمانهم وآلامهم.

وقد عاش شاعرنا واحداً وسبعين عاما (١٨٩٨-١٩٦٩) جاهد خلالها جهادا مريرا، في سبيل الحصول على لقمة العيش، ولكنه مع ذلك لم ينكص عن أداء رسالته بالشعر نحو وطنه، حيث حمل القلم في سبيل الذود عنه والدفاع عن حرياته[١]

ومن منا ينكر (عبد الحميد الديب) وشعره الذي يطفح ألما، وينطق بالبؤس والحرمان حتي لقد أصبح علما علي المحن والآلام، وكانت نوادره حديث الركبان.... ومن منا ينسي قصيدته المشهورة في عيد الأضحى التى يقول فيها:

قُدَّمْتُم الشاةَ قربانا لعيدكم والدهر قدَّمني للبؤس قربانا

لقد عاش محمد فضل إسماعيل عيشة أقرب إلي الإهمال منها إلي ذيوع الاسم والشُهرة، يكاد يكدح ويُضني نفسه، ويبذل جهده في سبيل النهوض برسالته كشاعر، على الرغم من المحن الداوية التى اكتنفت حياته.[٢]

فشاعرنا واحد من كبار أُولئك الشعراء الذين عاشوا في عصرنا هذا، وكان على ما ناله من منزلة وشاعرية مغمورا، وهذا أيضا لون من ألوان حرمانه المتعددة.

(١) مقدمة ديوان فضل إسماعيل
(٢) السابق

هذا بالإضافة إلي ما تعرض له الشاعر – في شيخوخته – من مسغبة وضيق ذات اليد ويظهر ذلك جليا في قصيدته التى يصف فيها حالته المادية والمعنوية حينما قابله الشتاء يقول:

أتـــدري كيـــف قـــابلني الشـــتاء؟ وكيـــف يكـــون فيـــه القرفصـــاء
وكيـــف البـــردُ يفعـــلُ بالثنايـــا إذا اصـــطكَت وجاوبهـــا الفضـــاء

وكيـف نبيـت فيـه علـى فـراش يجـور عليـه فـي الليـل الغطـاء
لقـــد أوفـــي وقـــابلني بوجـــه كوجـــه النـــذل فارقـــه الحيـــاء
فـــإن حـــلَّ الشـــتاء فـــأدفئوني (فـــإن الشـــيخ آفتـــه الشـــتاء)[1]

ونلحظ لونا آخر من ألوان البؤس والحرمان التى تعرض لها الشاعر في حياته وهو : فقد الأمُ، فنراه يتعرض لفقد أمه في مرحلة متقدمة من عمره، فيخاطب روحها في يوم ذكراها قائلا:

يـا طالمـا قلـت إنَّ الشـعر مذبحـة تـودي بصـاحبه مـن غبـر سـكين
والشعر يا أُمَ أغلي ما احتفظت به إنْ عشت أو مت فهو الدمع يبكيني

تركتنـي لصـروف الـدهر فاهتصـرت عـــودي وحســـبك أيـــام تربينـــي
خرجـت مـن ظلمـات البطن ملتمسـا نـــورا فكـــان ظلامـــا مـــا يغشـــيني
ولا ســـبيل لـــدينا النـــاس أطرقـــه فمـن إلـي قبـرك المجهـول يَهْـديني
إن الحيـــاة بغيـــر الأُم أحســـبها حيـاة عـانٍ كسـير القلـب محـزون[2]

ورأينا كيف بلغ الشاعر قمة تأثره في البيتين الأخيرين، حيث آثر الهروب من هذه الحياة وهذا المجتمع الذي لم يسعد فيه. إلي قبر أُمه لعله يجد هناك السعادة التى افتقدها في حياته.

(١) ديوان فضل إسماعيل ص ٢٤٧ وشعراء، ودواوين ص ٢٥٩
(٢) السابق ص ٢٤٠ وشعراء ودواوين ص ٢٥٩.

فالشاعر هنا ينظر إلي الحياة نظرة كابية، حيث يتمني أن لو ظل ماكثا في بطن أُمه فقد كان في مأمن فلا خوف ولا فزع، ولكنه خرج إلي الدنيا فأدركته الهموم. يقول :

قد كنت في ظلمات البطن مضطجعا في مأمن لا أري خوفا ولا فزعا
....
ولا بكيت لأسباب تنغصني ولا تجشمت آلاما ولا وجعا
حتي خرجت إلي الدنيا فأدركني هم بكيت له في حسنه تبعا[1]

ثم يقول متحسرا على ضعف جسمه وشيخوخته، فقد أحنت الشيخوخة عوده وأضعفت بصره وتركته ذا منظر بشع يقول:

وهل رسولٌ إلي أُمِّي يُبَلِّغُهَا أنَّ البناء الذي شادت قد انصدعا[2]

يقصد بالبناء نفسه. ويقول أيضا:

شيخا أضرَّ به صيف وأسلمه برد الشتاء إلي ركن به قبعا
سبعون عاما به مرت فما تركت من المحاسن إلاَّ منظرا بشعا![3]

كذلك من صور الحزن والآلم والبؤس التي يَبْكي لها من يشاهدها أو يعلم بحدوثها لإنسان ما : وقت احتضار شاعرنا " وقد حضرته الوفاة بدار رعاية الشيوخ بالإسكندرية، التى حُمل إليها على أعناق بعض فاعلي الخير، بعد أن التقطوه من الطريق العام، متكسرا متضعضعا لا يجد العلاج والدواء، وقضي نحبه فيها متأثرا بالجرح الغائر بسلسلته الفقرية على إثر تعثره أثناء صعوده سلم الفندق الذي كان يُقيم به، كان آخر ما قاله هو تلك الأبيات عن الموت:

قرأت كتاب الموت من عهد آدم إلي يومنا هذا ولما أتمم

(١) السابق ص ٢٣٥
(٢) السابق ص ٢٣٦.
(٣) السابق ص ٢٣٦

وعـودت نفســي إن قـرأت صــحيفة أو احتجت فـي بحثـي لِسفْر ومعجم

قـرأت إلــي أن يفـرغ الصــبر كلــه وطالعـت حتــي كـل حـرف مطلسم
فــأعرف مــا ترمــي إليــه ســطوره وأخـرج بـالمغزي علـى خيـر مغـنم
ولكـنّ سـفر المـوت خـيَّبَ فطنتـي وضـــيع آمـــالي فلـــم أتفهـــم

إلي أن يقول بختام القصيدة:

تحيَّرتُ يا رباه في الأمر إنني ... أمام جلال الموت قد جئتُ أرتمي
فسبحانك اللهم أنت خلقتنا ... من الطين في لحم على بعض أعظم

نروح ونغدو في الحياة فإن دنت ... يد الموت لم ننبس ولم نتكلم
وعُدْنا – كما كنا – ترابا مهادنا ... صَخور وفي ضيق من القبرُ مظلم
ولم يبق للدنيا سوي ذكرياتنا ... إذا ما فقدنا صورة اللحم والدم [١]

٤ـ روح البطولة والفداء:

" كان الشاعر منذ صغره ذا ولع عظيم بالجندية وحمل السلاح، كما يقول في مقدمة قصيدته: (السودان في عدسة المصور) [٢].

وحين ننظر إلي شاعرنا نجده قد حمل في روحه وجنانه وطنية جمَّة وملكة شعرية امتزجت بهذه الروح الوطنية امتزاجا كليا رائعا، مما أدي إلي انفجار هذه الملكة الشعرية مع انفجار قرينتها المتمثلة في ثورات مصر وحروبها المتعددة، "فقد ظهرت ملكة شاعرنا المبكرة إبان اشتعال العواطف الوطنية في ثورة سنه ١٩١٩، إذ كان مازال في العشرين من عمره، فعبّرَ أحسن تعبير بخياله الشاب وحماسته الفتية عن خلجات نفَسه وعن أحاسيسه تجاه وطنه " [٣]

(١) شعر ودواوين ص ٢٦٠، ٢٦١.
(٢) مقدمة ديوان فضل ص ٣.
(٣) السابق

يقـــــول:

أنـــا العربـــي لـــي وطـــن عريـــق حييـــتُ بـــــه كآبـــائي عريقـــا
بلســـــانك العربـــــي لا تـــــتكلم بـــــل بالمـــــدافع للأمـــــام تقـــــدم

واجعـــل لإســـرائيل قبـــرا هاهنـــا هو فـي السعير علـى مهاد جهنم[١]

أجل، إن شعره الوطني في ثورة ١٩٥٢، إن هو إلاَّ امتداد لطاقته الشعرية الوطنية التى شُحنت في مطالع الشباب الأول، وتجلَّت رائعة واضحة. [٢]

وعن حماسة شاعرنا ووطنيته يقول الأُستاذ محمد بدوي الخولي (رحمه الله تعالي): " ومن خلال بحثي عن شخصية السويس وتراثها الأدبي، تعرفت بشعر الشاعر الكبير الذي افتقدته السويس في إبان نضالها، وهو ابنها البار الشاعر محمد فضل إسماعيل، شاعر القوة والوطنية والحماس والأناشيد. وقد وجدت في شعره معاني طيبة لاستنهاض الهمم، جديرة بأن تطبع في ديوان، وأن تكون تجربة موفقة نستمر بعدها في جمع تراث أبناء السويس وأدبهم وشعرهم وفنونهم وألوان نشاطهم، لتصنع به مدينة السويس لنفسها تيارا يشارك في النشاط القومي العام، وفي ذات الوقت يُشكل الشخصية المميزة للسويس، بصلابة معدنها وبنضالها وصمودها وانتصارها الرائع المشرف"[٣]

(١) ديوان فضل ص ١٨١.
(٢) مقدمة ديوان فضل
(٣) مقدمة ديوان فضل

الفصل الثاني
الدراسة الموضوعية لشعر محمد فضل إسماعيل الديني

حين ننظر إلي شعر محمد فضل إسماعيل نجده قد اشتمل على موضوعات عديدة منها: الشعر الديني، والشعر الوطني والسياسي ولشعر الاجتماعي والشعر الإخوانى وشعر الوصف والهواتف الوجدانية وشعر الرثاء والشعر المترجم وأخير شعر الدعابات.

وإذا نظرنا أيضا إلي شعره الديني فإننا نجده يشتمل على ما يلي:

١- إلهيات أو مناجاة وابتهالات.
٢- من وحي السيرة النبوية الشريفة
٣- من وحي الإسلام
٤- نقد سلبيات المجتمع من خلال الشعر الديني.
٥- مَزْج الشعر الديني بالسياسة.
٦- شعر الطبيعة

وحين يناجي الشاعر ربه نجده يَسْبَح بفكره وخياله في ملكوت الله تعالي يقول في قصيدة: (يا الله!) [١]

لك – لا لغيرك – كل نفس تخشع ... وأمام وجهك كل ذات تخضع
سبحانك اللهم أنت خلقتنا ... في الأرض نسعي مبصرين ونسمع
ومنحتنا فيها الحياة قوامها ... نَفَسٌ على نبض القلوب مُرَّجع

يا حيُّ يا قيوم يا من لم ينم ... منذا لديك بغير إذنك يشفع
صورتنا يا رب أجمل صورة ... والطين عنصرنا فجلَّ المبدع
فإذا استراح القلب من خفقانه ... فإلي التراب مصيرنا والمرجع
والروح وهي وديعة وأمانة ... لم أدر كيف مصيرها والموضع
أمع الرياح تظل تسبح أم لها ... في ظل عرشك ما به تتمتع؟

(١) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ١٨.

أم تبتغي جسدا سوي جسدي الذي قد مزَّقتهُ يد البلي أن تقنع؟

****

من أمرك الروح التي حجَّبتها أوَلاَ يزاح حجابها أو يُرفع؟!
قد غيَّب الصلصال من أضوائها ما يكشف الغيم الكثيف ويقشع
يا رب هب لي منك عفوا واهدني طرقا تؤدِّي للوصول فأتبع

وهنا يبلغ الشاعر القمة حين يناجي ربه مفصلا من خلال هذه المناجاة حقيقة الإنسان وحسن خِلْقته وجمال صورته وأصله الذي هو الطين ثم يصور حالة الإنسان بعد حياته ومرجعه إلي أصله (إلي التراب)، ثم يتساءل عن الروح ومصيرها ووضعها ومكانها الذي تستقر فيه، وهل ستبقي مع الجسد الذي كانت ممتزجة به، أم سترفض وتبحث عن جسد آخر، ثم يبلغ ذروته الإيمانية حين يُقِّرُ بأن هذه الروح من أمر الله (عز وجل) حجبها وغمَّي أمرها على الجميع، يتمني أن يُرفع عنها الستار والحجاب ثم يطلب من المولي (سبحانه وتعالي) العفو والهداية حتى يصل إلي الطريق القويم.

والشاعر متعلق بالسيرة النبوية الشريفة حيث نجده ينظم هذه القصائد : (نفحة من بيت النبوة – مولد النور – حديث الهجرة – غزوة بدر – الإسراء والمعراج – أراد ربك خير الناس – ياليتني يوم الرحيل شهدته – الأخلاق المحمدية – أبا الزهراء إن الأرض شاهت – إلي حمام الحمي– طال بي ليلي – في منزل الوحي – يا حبيب الله – هل لعيني – أيتها الدنيا كفي – استقبال شهر رمضان – الشهر الذي أنزل فيه القرآن – التضحية والفداء – رابعة العدوية).

ولا شك أن الشاعر في هذه القصائد كلها يستمد من السيرة النبوية الشريفة ومن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية.

ويظهر ذلك بوضوح في قصيدته الأخلاق المحمدية وذلك علي سبيل المثال يقول : [1]

هي الأخلاق معجزة الزمان وركن ضارع الركن اليماني

(١) السابق ص ٦١

ومنبعث القوي في كل جيل ... وروض تستظل به الأماني
وصوت الحق يملأ كل سمع ... ومئذنة الهدي في كل آن

ونور إن طلبت له شبيها ... عييت فأين منه النيران
وسيف مرهف الحدين ماض ... يروعك في الضراب وفي الطعان
وروح الله يبعثه رضيا ... فينزل في الجوارح والجنان
لعمرك إنما الأخلاق صرح ... بناه من المكارم خير بان
وإن القدوة العظمي لهذا ... (محمد) صاحب السبع المثاني

****

فدعني أنظم الجوزاء عقدا ... وأبعث باللآلئ والجمان
وأُحْيي من ضروب القول فنا ... أتيه به على الحسن بن هاني
وأُطرب هذه الدنيا بشعري ... وأشجيها بترديد الأغاني

****

مشي يدعو لدين الله قوما ... قد ائتمروا على حرب عوان
وكانوا حوله ذؤبان عيل ... وهمّاَ في الخفاء وفي العيان
فجَّرد من قوي الأخلاق جيشا ... ومن إيمانه أمضي السنان
وقال القولة الكبري فدَّوت ... بها الدنيا وماد الخافقان:
"لئن وضعوا الغزالة [1]في يميني ... وفي اليسري الهلال لما ثناني
وتابعتُ الجهود ولم أُقَصِّرْ ... وقمتُ بأمر ربي غير وان"
بهذا كان للإسلام نصر ... وأصبح شأنه من خير شان
وهللت الحجون له وغنَّتْ ... بعزَّتِه الصفا والمروتان

****

(١) الغزالة : الشمس

سـلام الله كـم لـك مـن جهـاد ومـن جلـد أمـام المعمعـان
فتحـت مجاهـل الـدنيا وكانـت مبـاءة ظـالم ومـراح جـان
وعلمـت الزمـان مضـاء فـرد كجـيش مالـه فـي الـدهر ثـان

****

محمـد هـذه الـدنيا تنـادي بـذكرك فـي الصـلاة وفـي الأذان
وباسـمك تـنفح الآمـال طيبـا وتزدهـر المحافـل والمغـاني
وتبتسـم الحيـاة لكـل عـان وتصـبح مـن فـراديس الجنـان

****

سـلام يـا محمـد أنـت ذخـري ومـالى فـي بنـي الـدنيا يـدان
رضـاك أعَـزُّ مـا أبْغـي وهـذا طريقـي يـوم اظفـر بالتـداني
عليـك صـلاة ربـي مـن شـفيع ألـوذ بـه إذا خطـبٌ دهـاني

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر كان يعالج بعض القضايا من خلال قصائده الدينية، وينقد بعض سلبيات المجتمع أيضا من خلال هذه القصائد، فيشير إلي ما ينبغي فعله طبقا للسنة النبوية المطهرة، فنراه ينقد ما يفعله البعض فيما يسمونه "السبوع" اليوم السابع للمولود، من أفعال لا تقرها السنة، بل يشير إلي السنة في ذلك وهي العقيقة وإطعام اليتامي والمساكين والفقراء بدلا من رش الملح وإيقاد الشموع يقول : (١)

أسبوعه لم يكن في شمعة حملت ولا بملح على الأعتاب مُنتثر
لكن بنحر جزور قدمت كرما إلي يتيم ومسكين ومفتقر

وحين يتحدث عن رحلة الإسراء والمعراج يدعو الجميع لأداء الصلوات في أوقاتها وذلك لما يراه من تكاسل الكثيرين في شأنها يقول:

هناك قد فرض الديان شرعته على العباد فهل حقا نؤديها

(١) السابق ص ٣٠

خمسون خففها الرحمن مكرمة فكن خمسا قبيح أن نجافيها[١]

وقريب من هذا قوله في قصيدة (إلي حمام الحمي): [٢]

خمسون فرضا من الصلاة بنا أُريدت بلا فوات
أصبحن خمسا مدي الحياة بفضل خير الوري محمد
قم واملأ القلب بالخشوع وطَهِّر الذنب بالدموع
وصلِّ لله في خضوع وحيِّ مولاك في التشهد
با تاركا للصلاة مالي أراك بالدين لا تُبالي
جاريت إبليس في الضلال أبي عليه الغرور يسجد
الله أكبر الله أكبر دَعْ كل شيئ لديك واهجر
ولا تُسَوِّفْ ولا تُؤَخِّرْ صلاة وقت عليك يشهد
استغفر الله للعصاة عسي يقومون للصلاة

ومن نقد سلبيات المجتمع أيضا نراه ينقد العدوان والبغي والجشع وانقلاب الأمور حتي أصبح صاحب الحق غريبا عن الدنيا فيعطي الحق لغير صاحبه وصار الرأي في الأرض للجبان واليأس منتشر في كل النواحي والمذلة مسيطرة على أجزاء الأرض وليتهم يتمسكون بكتاب الله تعالي ففيه دعوى إلي العدل والحق والهداية. يقول : [٣]

أبا الزهراء إن ألأرض شاهت وصار الرأي فيها للجبان
ودب اليأس في كل النواحي وخيَّم فوقها نسج الهوان
ففي الأكواخ عدوان وبغي وما سلمت من الجشع المغاني
وأصبح كل ذي حق غريبا عن الدنيا يعاني ما يعاني
وفي الإسلام لو علموا كتاب كفيل بالعدالة والضمان

(١) السابق ص ٥٦
(٢) السابق ص ٦٦
(٣) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٦٤

فتحـــت المشـــرقين بـــه فكانـــا كمـــا ترضـــي... ودان المغربـــان

كذلك نراه ينقد سلبية تتحقق لدي أكثر الناس وهي الغدر بالعهود والمكر والخداع وإظهار غير ما في الباطن، وانعدام الوازع الديني والضمير يقول في قصيدته : (أبا الزهراء أن الأرض شاهت)[١]

هـــو الإنســـان كفـــار ظلـــوم يميـــل بـــه الأذي كـــالأفعوان
إذا عاهدتـــه يومـــا تخلـــيَّ وراغ بطبعـــه كالثعبـــان
أعـــوذ بعفـــوك اللهـــم ممـــن يُكِّـــنُ ضـــميره غيـــر العيـــان
نفـــوس لا يؤنبهـــا ضـــمير تســـف بهـــا قـــذار الامتهـــان

كذلك نجد للشاعر دعوة إلي الأخلاق من خلال شعره الديني فلابد من بناء الحياة على الأخلاق الكريمة يقول : [٢]

فأطلـب لنفسـك فـي الجـوزاء منزلـة وارق الســماء وإن عــزَّتْ مراقيهــا
وابـن الحيـاة علـى الأخـلاق متخـذاً مـن صـادق العـزم أركانـا تقويهـا

كذلك نجد دعوة إلي أداء الحقوق لأصحابها وأداء الفروض يقول :[٣]

أدِّ الحقـــوق وأدِّ الفـــرض مرتقبـــا يومـا بـه أنـت عـن دنيـاك مرتحـل
واعلـم بـأن حيـاة المـرء عاريـة مهمـا يطـول بـه التعميـر والأجـل

ومن الجدير بالذكر أيضا أن الشاعر مزج الدين بالسياسة فحين يتحدث عن الغارات الجوية على مدينة السويس يمزج السياسة بالدين مزجا رائعا حيث يقول: [٤]

كانـت مخابئنـا التقـوي نلـوذ بهـا خيـر المخـابئ مـا بالـدين نبنيهـا
فالـدين حصـن قـوي فـي جوانبـه مـا ينسـف الأرض والـدنيا ومـا فيهـا
ديـن بـه جـاء خيـر الخلـق ينشـره والجاهليـــة أشـــواك بواديهـــا

(١) السابق نفسه
(٢) السابق ص ٧٣
(٣) السابق ص ٧٨
(٤) السابق (المقدمة)

وشبيه بما سبق أيضا قوله (رافضا هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧) : [١]

لخط النار مهد لي الطريقا ... فلست أهاب في النار الحريقا
فنيران العدا ليست بشئ ... إذا الإيمان كان معي رفيقا
كإبراهيم مر بها سلاما ... وعاد يؤكد العهد الوثيقا
فديت المسجد الأقصي بروحي ... وبالدم أفتدي البيت العتيقا

وشبيه بما سبق أيضا قصيدته: (هلال رمضان والحرب العالمية الثانية[٢]، وقصيدة : من قصة نوح عليه السلام [٣] وليلة القدر[٤] وهو الدين[٥]) كل هذه القصائد نلمح فيها مزجا بين الدين والسياسة.

وحينما ننظر إلي شاعرنا نظرة متأنية نجده قد مزج بين شعر الطبيعة والشعر الديني، حيث يطلب إلي الروض أن يتحدث عن المقام الأسمى لسيدنا رسول الله (ﷺ) طالبا إليه أيضا أن ينشر أريجه بين الفجر والسحر، وأن يعلم الطير لحن الهوي، فالطير أصدق تغريدا على الشجر، فالله (عز وجل) هو الذي صوره ووصفه في كتابه الكريم، فمهما وصفناه فلن نصل إلي حد الوصف ولن نصل إلي مرادنا يقول : [٦]

يا روض حدِّث عن الريحان والزهر ... وانشر أريجك بين الفجر والسحر
وعلِّم الطير لحنا من عواطفنا ... فالطير أصدق تغريدا على الشجر
لعل في طوقها التعبير عن مُهَجٍ ... تود لو أفصحت عن طيب الأثر
إذْ ليس في عالم الألفاظ متسع ... لما أُحاول من قصد ومن وطر
هذا مقام تعالي الله صوره ... في محكمات من الآيات والسور

(١) السابق ص ١٨٠ وينظر أيضا شعراء ودواوين ص ٢٥٦. بتصرف
(٢) ديوان فضل إسماعيل ص ١١٨
(٣) السابق ص ١٦٧
(٤) السابق ص ٢٠٠
(٥) السابق ص ٢٠٣
(٦) ديوان فضل إسماعيل ص ٢٥

فالشـــــعر مهمـــــا تســـــامي فلـــــن يُتـــــاح الوصـــــول
ومـــــن أعـــــز مقامـــــا إن جـــــاء ذكـــــر الرســـــول

ويقول أيضا عن النسب العريق لرسول الله (ﷺ) [1]

يـا روض إنـك شـعري فاصـطفق طربـا واسـلك سـبيلك بـين الطـل والنهـر
وابعـــث حفيفـــك بـــالأوراق أُغنيـــة واهـزز غصـونك هـز العـود والـوتر
واملأ سماء الهوي ما شئت من نغم وهـــات أروع لحـــن منـــك مبتكـــر
فـــإن بلغـــت قريشـــا فـــارو قصـــتها واخفض جناحك عند البيت وادّكر
فـــإن ســـيد هـــذا البيـــت تعرفـــه جـدا لأكـرم خلـق الله فـي البشـر
هـــــل شـــــيبة الحمـــــد إلا جـــــد لبـــــاني العقـــــول
قـــــــد زادة الله نـــــــبلا فكـــــان زيـــــن الكهـــــول
سل بـارح الطير فـي الـوادي وسـانحها وارجع إلي النسر إن حققت في الخبر
وسـل وحـوش الفـلا واسـأل كواسـرها عـن هاشـمي عزيـز الجـاه والخطـر
وكيـف كـان العطـاء الجـزل مـن يـده ينسـاب كالغيـث بـين البيـد والمـدر
فمـا تخلـي عـن الأطيـار بطعمهـا ولا تناسـي جيـاع الـوحش والنمـر
فكيـف بالنـاس إن شـدوا رواحلهـم إليـه أو أقبـل الركبـان مـن سـفر
يقولـــــون غيثـــــا عميمـــــا ينهـــــال شـــــبه الســـــيول
يلقـــــون ســـــمحا كريمـــــا مـــــن العظـــــام الفحـــــول

وفي قصيدة : (أراد ربك خير الناس) نراه بشخص الطبيعة الساحرة للدلالة على التحول العظيم الذي حدث بمجئ الرسول الكريم (ﷺ) إلي البشرية فصار الكون كله نورا وجمالا بعد أن كان ظلاما وجهلا يقول [2]:

سِّرْ في الخمائل وانظر في نواحيها فالحسن كالسحر من أجلي معانيها

(١) السابق نفسه
(٢) السابق ص ٥٥

كـم للنسـيم دعابـات إذا خطـرت ... علـى الغصـون رأيـت السـحر يُثنيهـا
والزهـر ينشـر فـي الآصـال نفحتـه ... فـيملأ الـنفس آمـالا ويحيهـا
والـروض تصـدح موسـيقاه باعثـة ... لحـن الطبيعـة جـلَّ الله باريهـا
إذا تهامسـت الأغصـان جاوبهـا ... صـوت الحفيف فـزادت فـي تصـبيها
وفـاض مـن تحتهـا نهـر يـداعبها ... حينـا وحينـا بصـافي الـود يسـقيها
يشـكو فتسـمع أنـات مرجعـة ... مـن الخريـر كولهـان يناجيهـا
والطيـر يختـال فـي أنحائهـا طربـا ... يشـدو بـأعزب لحـن مـن أغانيهـا
كـأن داود بالمزمـار أرسـله ... إلـي الحيـاة بصـوت الحـق يشـجيها
فاسـتوقف الطيـر واسـمع مـا يـردده ... علـى المزاهـر فـوق الأيـك شـاديها
فالشـعر مـن لغـة الأطيـار مقتـبس ... والشـعر دنيـا هـديل الـورق يحـدوها
يـا طيـر أنشـد علـى الأفنـان أُغنيـة ... تفـيض بـالطهر فـي الـدنيا قوافيهـا
فأنت أفصح من سحبان إن جَمحت ... بنـا البلاغـة أو عـزَّتْ مراميهـا
فغـنِّ وانقـل عـن الصـحراء مـأثرة ... فـم الزمـان بـآي الحمـد يرويهـا
واذكـر قريشـا كيـف امتـد سـؤددها ... مـذلاح للـدين نـور فـي مغانيهـا

الفصل الثالث
الدراسة الفنية
لشعر محمد فضل إسماعيل الديني

أولا: **الألفاظ والتراكيب**:

إن الناظر في شعر محمد فضل إسماعيل يجده يمتلك كماً هائلا من ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها، ويرجع ذلك لدراسته بالأزهر الشريف، حيث دراسة اللغة العربية والشروح والحواشي والمتون والبلاغة والثقافة العربية الأصلية التى استقاها من منابعها الأصلية بالإضافة إلي دراسة الشعر قديمة وحديثة والثقافة الإسلامية التى بدأ نبتها لديه منذ الصغر حيث حفظ القرآن الكريم وأدرك بعض معانيه ثم صقلت الدراسة الأزهرية هذا الجانب فأصبح القرآن الكريم والثقافة العربية الأصلية والإسلامية كل ذلك يكوِّن لديه نبعا رقراقا صافيا يتمثل في اللغة البارعة والأسلَوب الرائع الذي يغلب عليه القيم الإيمانية والمعاني القرآنية.

(وقد كان الشاعر يعزو ما أطلق العنان لشاعريته وأرفادها بالديباجة الجزلة المشرقة والأصالة اللغوية، إلي تلك الفترة، فترة دراسته بالأزهر رغم قصرها نسبيا، واللبق اللبيب يفيد من العلم القليل، ما لا يفيد الفدم الخامل من العلم الغزير في السنوات المتطاولة)[١]

ويمتاز شعره الديني خاصة وشعره في بقية الديوان عامة (بديباجة قوية وأصالة لغوية وانطلاق لا تحده حدود، فالشاعر طويل النفس في شعره إلي درجة بعيدة، وقد تبلغ القصيدة الواحدة مائة بيت أو مائتين، دون أن يحس ناظمها ضعفا أو إرهاقا)[٢]

والناظر – أيضا – في شعر فضل إسماعيل يجد غلبة الروح الإيمانية والإسلامية على ألفاظه وتراكيبه، مما يدل على يقين إيمانه وعزة إسلامه وصلته بربه وتوجهه إليه وتمسكه بحبله، لقد كشفت لنا تراكيب الشاعر وألفاظه عن شاعر

(١) شعراء ودواوين ص ٢٥٧
(٢) مقدمة ديوان فضل

مسلم يسير على نهج الفضيلة وينأي بطاعته عن سلوك الرذيلة، كما كشفت عن إيمان الشاعر القوي بربه وخالقه، وقيامه بدوره في الحياة وخلافته في الأرض من خلال فهمه للنصوص القرآنية ومعرفته لأسرار العربية.

وعلي ذلك ففي الصفحات التالية دراسة لبعض الظواهر الأُسلوبية في شعر محمد فضل إسماعيل على النحو التالي:

١- **الابتداء.** **٢ـ استلهام النص القرآني.**

٣ـ **التكرار.** **٤ـ الحكمة.**

٥ـ **القص والحوار.** **٦ـ تلاحم الأبيات وترابطها.**

٣- الابتداء:

لا شك في أن أول القصيدة يُلفت النظر إلي ما عند الشاعر من تجربة تسيطر على الوجدان، كما يدل على ما يسيطر على نفس الشاعر من أفكار وما يدور في ذهنه من معان. وإذا نظرنا إلي قصائد الشاعر الدينية فإننا نجد صورا متعددة من صور الابتداءات.

حيث يبدو للناظر المدقق في شعره تعدد الأشكال والألوان فأحيانا يدخل الشاعر مباشرة إلي الغرض دون اتباع بداية بعينها، ومن ذلك قوله في أول قصيدته: (استقبال شهر رمضان):

أَشْرقْ فوجهك فيه النور والأمل وفيه يا رمضان الحسن مكتمل

وفي لياليك للعباد متسع حيث النفوس من الأوضار تنتقل

وفي النهار لذكر الله ما عَمُرتْ به القلوب وفضل الله متصل

يا أيها الشهر أنت الدهر مجتمعا في ليلة منك فيها تبرأ العلل[1]

(١) ديوان فضل إسماعيل ص٧٧

وشبيه بما شبق قوله في أول قصيدة (الأخلاق المحمدية):

هـــي الأخـــلاق معجـــزة الزمـــان وركـــن ضـــارع الـــركن اليمـــاني
ومنبعـــث القـــوي فـــي كـــل جيـــل وروض تســـتظل بـــه الأَمـــاني
وصـــوت الحـــق يمـــلأ كـــل ســـمع ومئذنـــة الهـــدي فـــي كـــل آن[١]

وأحيانا يبدأ الشاعر قصائده الدينية بالنداء والمناجاة للذات العلية ومن أمثلة ذلك قوله في أول قصيدة (اللهم غفرانك) :[٢]

يـا مالـك الملـك يـا قيـوم سـبحانك قد جلَّ ذنبي فهب لي منك غفرانك

وفي قصيدة (مولد النور) [٣](ﷺ) يبدأ الشاعر أيضا بنداء الروض **يقـــول**:

يـا روض خِّدثْ عـن الريحـان والزهـر وانشـر أريجـك بـين الفجـر والسـحر

وأحيانـا أُخـري يبـدأ قصـيدته بالاسـتفهام كمـا فـي قصـيدة (مـا أدراك مـا الصوم؟) يقول:

ومـا الصـوم مـا أدراك مـا الصـوم؟ إنـه لَقُرْبَـــي لـــذات الله أكـــرم مـــنعم[٤]

وشبيه بما شبق قوله في أول قصيدة (جمال كوكب النصر):

هـــل (جمـــال الشـــرق) إلاَّ كوكـــب فـــي ســـماء النصـــر وضـــاء فُنِيْـــرُ[٥]

(١) السابق ص ٦١
(٢) ديوان فضل ص ١٧
(٣) السابق ص ٢٥
(٤) السابق ص ٨١
(٥) السابق ص ٨٤

٤-استلهام النص القرآني:

إن القرآن الكريم مليئ بالدرر واللآئي التى لا تنفد ولا تنقطع مليئ بالأُسلوب المبهر المعجز، حيث أعجز البشر، فلم يأتوا بمثله ولا ببعض من مثله، يستقي منه الجميع، وينهل منه الشعراء، كل يأخذ على حسب موضوعه ما يدعم قوله ويقويه.

وعلى هذا النهج سار الشاعر محمد فضل إسماعيل مقتبساً من القرآن الكريم، وناهلاً منه بعض معانيه.

ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة (يا الله !) : [١]

يا حيُّ يا قيوم يا من لم ينم منذا لديك بغير إذنك يشفع

وهنا نجد الشاعر استقي هذا المعني من قوله تعالي في آية الكرسي :" الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض منذ الذي يشفع عنده إلا بإذنه" [٢]

كذلك استقي الشاعر من معاني القرآن وألفاظه حيث يقول عن وفد الشرك الذي جاء لهدم الكعبة المشرفة:

ألم تر كيف الفيل أهلك أهله البيت
أبابيل طير طاردتهم بحاصب البيت[٣]

ويظهر هنا اعتماد الشاعر على بعض ألفاظ سورة الفيل لتدعم ما يقوله.

كذلك حين يتحدث عن النبي (ﷺ) ويُتْمه يقتبس من القرآن الكريم ليؤكد على المعاني القرآنية الطيبة مثل : إكرام اليتيم فيزداد الجميع تمسكا بها يقول:

(أما اليتيم فلا تقهر) كما أَمَرَتْ آياتُ ربك فاقرأ منه واعتبر
فالله آوي يتيما يُطريه جيل فجيل[٤]

(١) السابق ص ١٨
(٢) سورة البقرة من الآية رقم (٢٥٥).
(٣) ديوان فضل ص ٢٣، ٢٤
(٤) السابق ص ٣١

يقتبس الشاعر هنا قوله تعالي : "ألم يجدك يتيما فآوي" وقوله : "فأما اليتيم فلا تقهر" (١)

أيضا حين يقول متحدثا عن انهزام رؤوس المشركين في غزوة بدر:

فكبكبوا في صعيد الموت وانهزموا وذا جزاء من استشري ولم يثب
وما رماهم رسَول الله حين رمي لكن رمي الله فارتدوا على العقب(٢)

نراه يقتبس لفظة (فكبكبوا) من قوله تعالى : "فكبكبوا فيها هم والغاوون(٣)".
والبيت الثاني أخذه من قوله تعالي: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي"(٤)
كذلك حين يقول في قصيدة في (منزل الوحي):

سبحان من علَّم الإنسان بالقلم ما ليس يعلم جل الله ذو الكرم
سبحانه أنزل القرآن معجزة على الحبيب العظيم النفس والشيم
وافاه جبريل عند الغار في أدب بالآية (اقرأ) ففيها الوحي في كلم
باسم الذي خلق الإنسان من علق قد جَئت أحمل أمر الواحد الحكم
تبارك الله رب العرش أرسلني إليك فاقرأ كتاب الله واستقم
لو أنزل الله ما فيه علي جبل خرَّ منصدعا من خشية العظم
الله أكبر صلي الله يا أملي عليك تمتد من بدء لمختتم(٥)

نجده قد استمد هذه المعاني القرآنية والروح الإيمانية من قوله تعالي في سورة العلق : (إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم "(٦)

ومن قوله تعالي :"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.." (١)

(١) سورة الضحي
(٢) ديوان فضل ص ٤٤
(٣) من سورة الشعراء آية رقم ٩٤
(٤) من سورة الأنفال آية رقم ١٧
(٥) ديوان فضل ص ٦٨
(٦) من سورة العلق آيات (١-٥)

ومن استلهام الشاعر للسنة قوله متحدثا عن الرسول (ﷺ):

وقـــال القولـــة الكبـــري فَـــدَوَّتْ بهـــا الـــدنيا ومـــاد الخافقـــان:

"لـئن وضـعوا الغزالـة فـي يمينـي وفـي اليسـري الهـلال لمـا ثنـاني

وتابعـــتُ الجهـــود ولـــم أُقَصِّـــرْ وقمـــت بـــأمر ربـــي غيـــر وان"[٢]

وهنا يشير الشاعر إلي مساومة المشركين لرسول الله (ﷺ) على أن يتَرك دين الله تعالي والدعوة إليه وقول الرسول (ﷺ) لعمه : والله يا عمي لئن وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته.

وفي نهاية الأمر نجد أن الاقتباس القرآني واستلهام نصوصه واستلهام السنة النبوية المطهرة جاء ليؤكد على المعني الذي أراده الشاعر ولم يأت تكلفا وإنما جاء اقتباسا مُثْريا قام بدوره الفعال في أداء تجارب الشاعر علي وجه من الكمال الفني.

٥- التكـــــرار:

التكرار يدل على إعادة الشئ أو الفعل أو القول مرة بعد أُخري ولقد فطن بعض النقاد قديما إلي قيمة التكرار ورأوا أنه يأتي على جهة التشوق والاستعذاب في النسيب والتنويه في المدح [٣]

والتكرار من الوسائل التى يمكن أن تؤدي في القصيدة دورا تعبيريا واضحا فتكرار لفظ ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره. [٤]

وتعد ظاهرة التكرار من السمات الأسلوبية المميزة في شعر فضل إسماعيل حيث سارت في أغلب قصائده وظهرت دائما في موقعها المميز من الأداء الفني،

---

(١) من سورة الحشر آية (٢١)

(٢) ديوان فضل ص ٦١ والمقصود بالغزالة في الأبيات: الشمس.

(٣) العمدة – ابن رشيق القيرواني تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ج ٧٤/٢ بتصرف طبعة خامسة ١٩٨١ – دار الجيل – بيروت لبنان

(٤) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ عشري على زايد ص ٦٠، ٦١ طبعة ثانيى ١٩٧٩– مكتبة دار العلوم

فالناظر في قصائده يري كَمّاً لا بأس به من صور التكرار المُثْري الذي يقوم بدوره الفعال في أداء التجربة الشعرية على وجه الكمال الفني. ومن ذلك قوله واصفا أسري بدر وما حدث لهم:

إنـــي لأذكـــر أســـراكم ومـــوقفكم مـنهم ومـا كـان مـن عـان ومكتئـب
وكيـف أطلقتمـوهم حـين جـئ لكـم بفديـة مـن كـريم المـال والـذهب
وكيـف علَّـم أسـراهم جمـاعتكم فـن الكتابـة مـا دامـوا بـلا نشـب
وكيـف أبكـتْ رسـول الله شـاعرة تبكـي أباهـا بـدمع جـد منكسـب[1]

لقد كرر الشاعر لفظة (كيف) مع حرف العطف للتأكيد على عظم هذا الأمر من المسلمين والتعجب من حكمة تفكيرهم ورشد فعلهم في هذه الغزوة الكبري.

كذلك يكرر الفعل (رأي) في حديثه عن الإسراء والمعراج، ليؤكد على رؤية الرسول (ﷺ) لمشاهد كثيرة مهمة، وعلى أن الرؤية مؤكدة بالعين والقلب معا وبالروح والجسد معا يقول:

رأي ملكـا لـه فـي الـثلج نصـف ونصـف كـاد يلتهـب التهابـا
رأي ملكـا بكـي أهـل الخطايـا كثكلـي تـذرف الـدمع انتحابـا
رأي نوحـا وهارونـا وموسـي وإدريـس الـذي خـاط الثيابـا
رأي داود وهْـو كمـا عـرفتم علـى يـده الحديـد الصـلب ذابـا

****

رأي يحـي رأي عيسـي وألقـي حقـائق لـم تكـن إلاَّ لُبابـا
رأي فـي الرشـد إبـراهيم ينعـي دُمـي الأصـنام يودعهـا الخرابـا[2]

(١) ديوان فضل ص ٤٤
(٢) السابق ص ٥٢

ويدل على ما سبق قوله في نفس القصيدة:

خلاصة قصة المعراج فيها ... يُقَدِّمه النعيم لنا رضابا
تعالي الله قال بها فكانت ... بدين محمد أمرا مجابا
وروح محمد روح تسامت ... أخذنا باسمها الدنيا غلابا
وَعَتْ أحوال دنيانا وكانت ... بصنع الخير للأُخري وطابا
وما جسد الرسول سوي عبير ... كطيب المسكَ إنْ نفح الملابا
كلا الأمرين معجزة وحق ... أمامهما انطوي الشرك انسحابا [1]

ولا ينسي الشاعر أن يقدم السلام تحية لرسول الله (ﷺ)، ولا أن يكرر هذه التحية المقدمة لأعز الخلق جاها وأعظمهم وأرفعهم جنابا، يُسَلِّمَ على حبيب الله (عز وجل) يُسَلِّم عن صاحب الإسراء والمعراج (ﷺ) ليلتمس الثواب والشفاعة، فمن صلي عليه صلاة صلي الله تعالي عليه بها عشرا يقول:

سلامٌ يا حبيبَ الله يَبْقَي ... ليوم الحشر يضمن لي المآبا
سلام يا محمد في صلاة ... من المولي تُجَنِّبُنِي العقابا
سلام يا أعز الخلق جاها ... وأعظمهم وأرفعهم جنابا
ألم يشرح لك الرحمن صدرا ... ألم يُلهمك في الرأي الصوابا
سلام صاحب الإسراء إني ... بشعري جئت ألتمس الثوابا[2]

وحين يتحدث في قصيدة (أبا الزهراء إنَّ الأرض شاهت) عن ظلام الجاهلية نجده بعد ذلك يذكر اسم النبي (ﷺ) ويكرره قائلا:

فباسم محمد بسمت ليال ... وباسم محمد صُغْتُ الأماني
وعند محمد ألقيت رحلي ... وفيه نظمت ساحرة الأغاني
محمد أنت للدنيا ضياء ... وأنت مثالها في كل آن
وأنت كما أراد الله نور ... وروح ليس ييأس منه عان[3]

(١) السابق ص ٥٣
(٢) السابق ص ٥٤
(٣) ديوان فضل ص ٦٣

ومع هذا كرر ضمير الخطاب العائد على الرسول (ﷺ) مرتين (أنت) ومن هذا التكرار نعلم مدي تأثر الشاعر بشخصية الرسول (ﷺ) العظيمة، حيث يحبه حبا جماً تملَّكَ من نفسه حتي جعله يكرر اسمه (ﷺ) أربع مرات بالإضافة إلي ضمير الخطاب مرتين، مما يدل أيضا على التلذذ بنطق وتكرار اسم المحبوب المعصوم (ﷺ) وشبيه بما سبق أيضا قوله مخاطبا الرسول (ﷺ):

يا ابن عبد الله أنت الأمل ... أنت للإخلاص أعلي مثل
أنت سِّرٌ للهدي متصل ... أنت حُلَي المجد عند العطل
طبت نفسا حيث طاب العمل ... فاحتواك الجاهُ بين الرسل
أنت للمحزون سَلْوي إن بكي ... أنت روح في ليالَي الكُرَب
أنت للعاني لسان إن شكا ... لك عند الله خير الرُتَب[1]

٦- الحكمة:

إذا كانت حكمة الشعراء تعود إلي نظرة عقلية تعرض لهم حين الإفصاح عن تجربتهم الشعرية فهي على أى حال شديدة الاتصال بواقع حياة الشاعر ومداركه ومدي إحساسه ومعرفته للعلاقات القائمة المتشابكة بين جزئيات الحياة والنظر فيها، وهذا ما حدا بالدكتور أحمد كمال زكي لينفي عن حكمة الشعراء النسبة إلي الفلسفة حيث يقول في كتابه " شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي": "ولست أجعل الحكمة نوعا من الفلسفة التى تبحث عن حقائق الأشياء وتنظر فيما وراء الطبيعة والإلهيات وإنما أجعلها درجة من الوعي الفكري يجمع معاني عامة تأتي دائما عن طريق تجربة أو نظرة في الحياة وهذه مرحلة من الشعر لا يصل إليها كل من قال القصيدة ذلك أن الشعراء جميعا ليسو سواء في نظرتهم إلي الحياة فقد يري البعض منها سطحها فقط وقد يري البعض ما وراءها ولكن دون

(١) السابق ص ٣٩

أن يقف إزاءَها مفكرا ثم هناك فريق ثالث يراها من كل جانب فيري فيها رأيا ويكوِّن عنها فكرة.

والمتصفح للشعر العربي يُدرك أنه امتلأ عن آخره بِقَوْلِ الحكمة حتى قال ابن خلدون : الشعر العربي في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الواقع فهو أصيل في الحكمة عريق: (١)

وبالنظرة المدققة في شعر محمد فضل إسماعيل نجد كماً هائلا من الحكمة في ديوانه وفي شعره الديني والملاحظ أنَّ هذه الحكم لم تأت جزافا وإنما جاءت نتيجة لخبرة طويلة وتجربة في الحياة صعبة. فمثلا حين يتحدث عن الهجرة النبوية يذكر طرفا مما دار بين النبي(ﷺ) وأبي بكر (رضي الله عنه) وسراقة بن مالك حين تبعهما بقرسه وغاصت قدمه في الرمال فكان يطلب العفو والسماح من رسول الله ﷺ فيعفوا عنه ويعطيه الأمان ويُعْلِمُهُ أنَّ من يكن في حفظ مولاه وبارئه يأمن البلوي وشر النقم يقول الشاعر:

قال سامحني فحظي جلل ... حسب عيني ما تري من عطب
خُذْ علىَّ العهد إني رجل ... سوف لا أَلقاكما في شغب
قال أمَّناك فاذهب لا تَعُدْ ... مرة أُخري لنقص الذمم
أعطه يا ابن فُهير إن يرد ... عهدنا واكتب له بالقلم
من يكن في حفظ مولاه الصمد ... يأمن البلوي وشر النِقَم(٢)

كذلك حين يتحدث عن غزوة بدر يذكر طرفا من الحديث عن أبي لهب داعيا عليه بقطع يديه فهو الذي سيصلي نارا ذات لهب وزوجه في النار حمالة الحطب ومع وفرة أمواله فلن تغني عنه شيئا والمال إذا وجَّهَهُ صاحبه إلي الشر فما هو إلاَّ شرٌ ووبالٌ عليه وهنا تظهر لنا الحكمة يقول:

فما تخلف من ساداتهم أحد ... وإن تباطأ في هذا (أبو لهب)
تبتْ يداه سيصلي نار فتنته ... وزوجه في اللظي (حِمَّالة الحطب)

(١) المقدمة لابن خلدون
(٢) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٣٦

لـــم تُغْـــن عنـــه الأمـــوال وفرتهـــا ما المال في الغيِّ إلاَّ شَرُّ مُكْتَسَبِ[١]

ثم ينتقل الشاعر إلي حكمة أُخري يقرر فيها أن الجيش إن رفع لواءه المؤمنون المخلصون فهم الفائزون بالخير العميم والنجاح العظيم وإن رفع رايته الشيطان فلن يفوز بغير الخُسر والعطب يقول:

والجـيش إنْ رفـع الشـيطان رايتـه فلن يفوز يغير الخسر والعطب [٢]

كذلك يقرر في حكمة أُخري تحمل معني الآية الكريمة : " إن تنصروا الله ينصركم" فمن ينصر الله تعالي فلن يفشل ولن يخيب أبدا يقول:

وقـــال ســـيروا فـــإن الله ناصـــركم مَنْ ينصر الله لم يفشل ولم يخب

ثم يتحدث عن المشركين الذين قتلهم المسلمون شرَّ قِتْلَة وهزموهم شرَّ هزيمة فهذا جزاؤُهم، جزاء من استشري، ولم يثب، ولم يرجع إلي الحق يقول:

فكبكبوا في صعيد الموت وانهزموا وذا جزاءُ من استشري ولم يثب[٣]

كذلك يَسْرِدُ الشاعرُ حكمه التى تُعَّدُ زاداً إيمانيا نابعا من عقيدة راسخة وثقافة إسلامية واسعة فما صلة العبد بربه إلاَّ صلاة بالأماني المبتغاة، وليست الصلاة إلاَّ صديق بعجب المرء ويَسُّره إن طلب الصحاب، وليست للمرء إلا زاداً ينفعه في الآخرة يقول الشاعر:

ومـــا صـــلةُ الفتـــي بـــالله إلاَّ صـــلاة بالمـــآرب لـــن تُشـــابا
فهيـــا نحـــو دور الله نســـعي لليلتنـــا ونســـتبق المتابـــا
فلـم تكـن الصـلاة سـوي صـديق يسـر المـرء إن طلـب الصـحابا
وليســت فــي رحيلــك غيــر زاد تعبئــه إلــي الأخــري جرابــا[٤]

ومن حكمه أيضا حين يتحدث عن الزهد والتوبة في قصيدة (أيتها الدنيا كفي) قوله:

(١) السابق ص ٤١
(٢) السابق نفسه.
(٣) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٥٤
(٤) السابق ص ٥٣

رُدُّوا زخـــارف دنيـــاكم وجافوهـــا فكـم أضـرَّت بنـا الـدنيا وأهلوهـا
مـن غـرَّهُ الغـرض الفـاني وأَعجبـهُ صفوُ الحياة قضـي الأيام مشدوها[١]

فهنا يري الشاعر من خلال تجربته الطويلة في الحياة أنَّ من اغتَّر بغرض الحياة الفاني وأُعجب بصفوها قضي الأيام متَحيِّراً مندهشا، لذا يطلب مَنا جميعا أنْ نَرُّدَ زخارفها ونجافيها، لأنها كثيرا ما أضرت بنا وبأهليها.

وفي نهاية المطاف يصف الشاعر رابعة العدوية شهيرة العشق الإلهي باثّاً من خلال هذا الوصف حكمته التى توحي بأن من كان بالله متصلا وله مُحّباً (كرابعة) جاز المسالك المملوءة بالضيق والمحن يقول :

مَـنْ هـامَ بـاللهِ مبـروراً كرابعـة جازَ المسالكَ ذاتَ الضيقِ والمحنِ
مـا أَعْظَـمَ الحـبِ للعبـادِ منزلـةً فهو الجناح إلي القُربي بلا وَهَنِ[٢]

٧- القص والحوار:

الحوار في المعجم اللغوي يعني الجواب أما في الفن فهو حديث بين شخصين أو أكثر تضمه وحدة الموضوع والأسلوب مما يجعل الكلام متسقا بطريقة تثير الاهتمام فالمقصود بالحوار حكاية الواقع مضافا إليه عنصر التشويق والخيال والتصرف الشخصي ويقوم به الشاعر في قصيدته فيحكي ما دار بينه وبين محاوره بطريقته الخاصة على طريقة : قال أو قالت.... فقلت له أو قلت لها والشاعر في حواره يبتعد عن التجسيم الدرامي – الذي هو من عناصر القصة أو المسرحية – بمقدار ما يقترب من السرد القصصي ومعني هذا أن يقوم الحوار على السؤال والجواب [٣]

وحين ننظر إلي الكثير من الشعراء نجدهم قد استخدموا أُسلوب القص الشعري في أشعارهم وقصائدهم "وإذا رجعنا إلي الشعر الجاهلي الذي رواه لنا الرواة وسجلته كتب الأدب وجدنا مظاهر قليلة من الحوار في القصيدة العربية متفرقة هنا

(١) السابق ص ٧١
(٢) السابق ص ٨٥
(٣) الشعر العربي المعاصر د. عز الدين إسماعيل ص دار العودة بيروت سنه١٩٨٨.

أو هناك فقائلة تقول والشاعر يقول في الرد عليها وأكثر ما نجد هذا الحوار في شعر الرثاء فالقائلة تقول : إن الشاعر قد شاب – مثلا – فيرد عليها الشاعر بأن الدهر قد أفقده إخوته والخطوب توالت عليه فشيبته:

تقول ابنة العبسي قد شِبْتَ بعدنا وكل امرئ بعد الشباب يشيبُ
فقلتُ ولم أعي الجواب ولم أبحْ وللدهر في الصُّم الصلاب نصيبُ
تتابع أحداث تخرَّمن إخوتي فَشَيَّبْنَ رأسي وَالخطوب تشيبُ

وإذا انتقلنا إلي العصر الإسلامي وجدنا الحوار في القصيدة العربية يأخذ طابعا مميزا عند شاعر مثل عمر بن أبي ربيعة في قصيدته الرائية حيث يحكي لنا مغامرة عاطفية مع ثلاثة شخوص: كاعبان ومعصر وكانت المغامرة بالليل حيث سكنت الأصوات وأطفئت الأنوار والمصابيح... ويكثر في القصيدة ترديد عبارات : فقالت فقالتا فقلت، فقالت الصغري" (١)

"والشاعر المعاصر... أكثر جنوحا إلي التعبير القصصي وبساطة اللغة ومحاولة النفاذ من الخاص إلي العام فضلا على التوسع في الصور"(٢)

وإذا كان النقاد قد عدوا الحوار أداة من أدوات التعبير الشعري ولونا من ألوان الأداء الفني فإنني أراه من السمات المميزة للشاعر النابه صاحب الموهبة الفنية المتميزة، حيث يستطيع أن يعبر عن موضوعه وتجربته بإتقان من خلال حديث يجري بين متحاورين.

وحين ننظر إلي شعر الشاعر محمد فضل إسماعيل فإننا نجد طرفا من هذا، حيث نجده قد اعتمد على أسلوب الحوار بين شخصين. ومثاله الحوار الذي دار بين رسول الله (ﷺ)وأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في حادث الهجرة النبوية حيث يكشف لنا الشاعر عما دار بينهما من حديث يدل على حنكة رسول الله (ﷺ) وحسن تصرفه في جميع الأمور يقول:

في هجير الحر في رمضائه ودَّع المبعوث وجه الوطن

(١) دراسات في الأدب العربي والتاريخ بقلم الأستاذ/ محمد عبد الغني حسن ص ١٧٥، ١٧٦ – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.

(٢) الصور الأدبية د. مصطفي ناصف ص ١٩٨ مكتبة مصر – دار مصر للطباعة

بـــالغ الأعـــداء فـــي إيذائـــه ... لـــم يكفـــوا عـــن ضـــروب الفـــتن
خـــفَّ للصـــديق فـــي لأوَائـــه ... فـــي قنـــاع مـــن نســـيج الحـــزن
أمعنـــت (أســـماء) فـــي أعطافـــه ... ثـم صـاحت : قُـمْ لـه قـم يـا أبـي
ذا رســـول الله فـــي أوصـــافه ... هـــذه أنـــواره فـــاقترب

****

هَشَّـــتِ الـــدارُ وماجَـــتْ طربـــا ... وانبـــري الصِّـــدِّيقُ لـــم ينتظـــر
قـال: فادخـل قـال: أخشـي الحربـا ... فاِصـرف الأغيـار واكـتم خبـري
إنَّ فـــي أمـــري لســـراً عجبـــا ... إذ أري نفســـي أمـــام الخطـــر
قـــال: فادخـــل لا أري مـــن حـــرج ... إنهـــم أهلـــك عنـــد النـــوب
يفتـــدون المصـــطفي بـــالمهج ... مرحبـــا فادخـــل ولا تكتئـــب

****

صـــاحبان اجتمعـــا يـــا لهمـــا ... مـــن وفيـــين وفـــاء الأَبَـــد
خُلَّصـــاً لله لـــم يثنهمـــاَ ... مـــا عـــرا نفســـيهما مـــن كمـــد
فارقـــا أهليهمـــا مـــا برمـــا ... بـــالأذي فـــي الله أو بالكيـــد
إنْ أبـــو الزهـــراء نـــادي لـــم تجـــد ... مـــن أبـــي أســـماء غيـــر الأدب

....

قـــال : إنـــي ضـــقت ذرعـــا بالبلـــد ... ما مضي بي يا صاحبي في طلبي
يـــا أبـــا بكـــر سأمضـــي إننـــي ... مطمـــئن لـــيس عنـــدي خـــور
هـــا هنـــا الصـــديق أمســـي لا ينـــي ... عـــن رســـول الله حيـــث الســـفر
قـــال: هـــب لـــي منـــك حُبَّـــاً وابقنـــي ... فـــي طريـــق المـــوت فهـــو الـــوطر
قـــمْ أخـــي واركـــب إذن راحلتـــي ... إنهـــا مـــن يعمـــلات الخبـــب
قـــال فاقبـــل مـــن لـــدن ناصـــيتي ... ثمنـــا بوركـــت مـــن مصـــطحب[1]

(١) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٣٢، ٣٣.

وهنا نري كيف استطاع الشاعر بحسِّه المرهف أن ينقلنا إلي هذا المشهد الدرامي المؤثر وقد اعتمد فيه على الصدق الفني حيث تمكن من تجربته معتمدا على أدواته من خلال الوصف والحوار القصصي في كثير من مواقفه مع استخدام لغة الحكاية وسرد الحوادث في بنائه الفني.

وهنا نلمح الشاعر معتمدا على روح السرد القصصي الأنيق حاكيا الموقف في يُسْرٍ وتشويق معتمدا على طرق التعبير إنشائية أو خبريةً:

جهـــزوا زادا جهـــازا قَيّمـــاً ... فـــي جـــراب مـــن متـــاع الـــوبر
هـــذه (عائشـــة) اهتمـــت بمـــا ... كـــان يحـــوي للطريـــق الـــوعر
وانبـــرت (ذات النطـــاقين) ومـــا ... فتئـــت تربطـــه لـــم تخـــر
ومضـــي الإثنـــان حتـــي لحقـــا ... "غـــار ثـــور" يـــا لـــه مـــن ســـرب
خلـــدا للـــدهر فيمـــا مضـــي ... ســـيرة كالمســـلك بـــين الكتـــب[1]

ويحكي أيضا علي سبيل السرد كاشفا عن عمل كل فريق من الفريقين فريق الهدي المتمثل في الرسول (ﷺ) وأبي بكر وفريق الضلال المتمثل في الكفار الباحثين عن الرسول (ﷺ) وصاحبه يقول:

أوغـــلا فـــي الغـــار ثـــم اعتصـــما ... حيـــث مـــاج القـــوم عنـــد الحـــرم
يـــذرعون الأرض بحثـــا عنهمـــا ... ومشـــي القـــائف[2] إثـــر القـــدم
فـــانتهي للغـــار يفتـــي مقســـما ... أنَّ عنـــد الغـــار زيـــغ الفهـــم
هـــا هنـــا يـــا قـــوم ضـــاع الأثـــر ... هـــا هنـــا ضـــاعت أصـــول الـــدرب
هـــا هنـــا أمســـت تغـــل الفكـــر ... لـــيس عنـــدي بعـــد ذا مـــن ســـبب

****

نَقَّـــبَ القـــوُم وطـــال الجـــدل ... حـــين ناحـــت ذات عـــش طربـــا
واســـتوي بـــالعنكبوت المثـــل ... فـــي فَســـيح واهـــن قـــد نصـــبا

(١) السابق نفس الصفحة
(٢) القائف : من يُحسن معرفة الأثر.

أخفقـــوا فـــي ســـعيهم فـــارتحلوا واستشـــاطوا بعـــد هـــذا غضـــبا
جعلـــوا للفـــذ مـــنهم مائـــة مغريـــات مـــن ذوات القشـــب
إنْ شـــفي نفســـية جاحـــدة مـــن دمـــاء المصـــطفي المحتجـــب

****

هـــذه أحـــلام قـــوم ذهلـــوا عـــن حـــدود العـــدل لـــم يعتبـــروا
لســـت أدري كيـــف غـــرَّ الأمـــل هـــؤلاء القـــوم حـــين ائتمـــروا
أيُّ جـــرح بعـــد ذا ينـــدمل إنْ همـــو فـــازوا وتَـــمَّ الظفـــرُ
يـــا لهـــذا مـــن عجيـــب يـــا لهـــم مـــن طغـــام أغرقـــوا فـــي الكـــذب
خيبـــة الله احتـــوت آمـــالهم فاســـتقرت فـــي الحضـــيض الخـــرب

****

ونجـــا المبعـــوث ممـــا نســـجوا مـــن خيـــوط واهيـــات الحيـــل
جـــاءه بعـــد الـــثلاث الفـــرج فمضـــي بحثـــث ســـير الإبـــل
فـــي صـــباح نـــوره منـــبلج يـــا لهـــا مـــن ســـاعة لـــم تحـــل
هـــا هنـــا فـــاز العـــلا والشـــرف وازدهـــي التـــاريخ بـــين الحقـــب
إخـــوتي أرجوكمـــو أن تقفـــوا فـــي خشـــوع لحظـــة فـــي رهـــب[1]

أنظر معي إلي هذا المشهد الذي حمل وجه المقارنة بين فريق الحق وفريق الضلال وبين خيبة الأمل وفوز العلا والشرف وبين ظلام الكفر ونور الهداية والإسلام وبين إخفاق المشركين في سعيهم وفوز المسلمين في تحقيق أملهم. كل هذا عن طريق السرد القصصي الذي سار عليه الشاعر.

(١) السابق ص ٣٤، ٣٥

٦- تلاحم الأبيات وترابطها:

لقد حقق الشعراء العرب – من قبل – نظرية التلاحم والترابط بين الأبيات، وتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة لا يفقدها الترابط والتلاحم ولا يفقدها طابع الوحدة التى تظهر بوضوح في معظم الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتي العصر الحديث.

وفي العصر الحديث نادي النقاد والأدُباء بتحقيق التلاحم والترابط بين أبيات القصيدة من خلال حديثهم عن الوحدة العضوية والوحدة الفنية، ومنهم من نادي بحتمية تحقق الوحدة الموضوعية التى تسري في القصيدة من أولها إلي آخرها في تسلسل واضح وترابط متين.

وفضل إسماعيل أحد شعراء العصر الحديث الذين فطنوا إلي حتمية التلاحم والترابط بين أبيات القصيدة وبين أفكارها ومعانيها، ومن ثم جاء شعره مرتبطا في أبياته متلاحما في تراكيبه متجانسا في ألفاظه وأساليبه والدليل على ذلك ما نراه في الكثير من قصائده. فمثلا قصيدته : (أيتها الدنيا كفي) يقول:

ردوا زخـــارف دنيـــاكم وجافوهـــا ... فكـم أضَـرَّت بنـا الـدنيا وأَهْلُوهـا
مـن غـرَّة الغـرض الفـاني وأعجبـه ... صـفو الحيـاة قضـي الأيـام مَشْـدُوها
جَرَّبْـتُ مـن حلوهـا مـا راح يُطْرِبُنـي ... وذُقْـتُ مَـن مُرِّهـا مـا كـان مكروهـا
فمـا نـدمتُ علـى شـئ ولا دمعـت ... عينـاي إلاَّ علـى نفسـي أعزِّيهـا
يـا نفسُ مـا أنـت والدنيا وقد سخرت ... منـك المقـادير وامتـدت عواديهـا
تتكَّـر الأهـل والأصـحاب وانقشـعت ... لـك القلـوب التـى ارتَّـدتْ نواحيهـا
مـاذا تريـدين بعـد اليـوم مـن نفـر ... كانـت عهودهمـو إفِكـا وتمويهـا
ران الزمـانُ علـى سـمعي وعـاطفتي ... ومـال بـالعين فـازوَّرت مأقيهـا
حتـي تجهَّمـتِ الأقـدارُ وانكسـرتْ ... منـيِّ عصـا كَنتُ فـي ضِيْقي أُرَّجيها
فلا الريـاضُ ريـاضٌ إنْ هـي ابتسمت ... ولا الغصـون غصـونٌ فَـي تَثَّنيهـا

ولا البلاَبـلُ والأطيـارُ إنْ صـدحتَ نبـراتُ شَـدْوٍ وإنْ رَنَّـتْ أغانيهـا[1]

وهنا حين ننظر إلي هذه الأبيات نجدها مترابطة متلاحمة إلي مدي بعيد وقد أعطت صورة واضحة للزهد والتوبة والسخط والتُّبرم من الدنيا يقدم الشاعر دعوة إلي التمسك بالزهد وترك زخارف الحياة الدنيا لأنها كثيرا ما أضرَّت بنا وبأهاليها، ومن غَرَّةُ العرض الفاني وأعجبه صفاء الحياة قضي دهره متحيرا مندهشا، وكيف لا وقد امتدت عوادي الحياة الدنيا إليه فأصابته وسخرت منه مقاديرها وتنكر الأهل والأصحاب، وعهودهم إفك وتمويه وتضليل وكذب، واستقبلته الأقدار بوجه عابس كريه وانكسرت عصاه التى كان يركن إليها في ضيقه وشدته وهنا تخلي عنه الجميع مثل الحياة الدنيا، فكما أن زخرفها عرض فكذلك عهود الأهل والأصحاب إفك وتمويه موقف تسيطر عليه الكآبة وجو يغلب عليه الحزن:

فلا الرياض رياض إنْ هي ابتسمت ولا الغصـون غصَـون فـي تَثَنِّيهـا
ولا البلابـل والأطيـار إنْ صَـدَحَتْ نبـرات شـدو وإنْ رَنَّـتْ أغانيهـا

ومن ترابط الأجزاء وتآلف الأبيات ما قاله الشاعر في قصيدته (الشهر الذي أنزل فيه القرآن):

وما الصوم ما أدراك ما الصوم؟ إنه لَقُرْبَـي لـذات الله أكـرم مـنعم
هـو الـروح تسـمو لاصـغار يُشـينها ولا هـي تشـقي بـين لحـم وأعظـم
فمـا كـان للصلصـال والطـين قيمـة سـوي دَوْسِ أقـدِام ووطء بمنسـم
ترَّفـع قلـيلا عـن خنـا الأَرضَ واتئـد أمـام جـلال الله تـؤجر وتَسْـلم
إذا أنت لم تصبر على الجوع والظمأ من الفجر حتي مغرب الشمس فاندم
ومـا كـان هـذا وحـده لـك شـافعا إذا الـنفس عـن غـيَّ الهـوا لَـمْ تقـوم
فمن لم يَصُنْ شتي الجوارح عن أذي فمـا صـومه إلاَّ كمحـض تَـوَهُّم
ولـيس لجبـار السـموات حاجـةً إلي مثل هذا النوع إنْ جاع أوْ ظَمِي
فـإنْ رمضـان امتـدَّ بالفضـل شَـهْرُهُ فمـا هـو إلاَّ نفحـةُ الله فـاعلم

(١) ديوان فضل إسماعيل ص ٧١

هـو الشـهر بـالقرآن قـد عـمَّ نـوره وآثـــره المـــولى بخيـــر معمـــم
ملائكـــة الـــرحمن فيـــه تنزَّلـــت وبـــالروح فيهـــا كـــان أكبـــر مغـــنم
بـــه ليلـــة القـــدر التـــى لـــيس مثلهـــا ولا ألـــف شـــهر بالحســـاب المـــرقم
بـه الغـزوة الكبـري (ببـدر) قضـي بهـا ملائكـة المـولى علـى كـل مـن عمـي
فلـم يبـق مـن شـرك ولا مـن ضـلالة ولا مـــن فســـاد أو ســـبيل لمـــأثم
كمـــا تـــمَّ للإســـلام نصـــرٌ مؤيـــدٌ وَحَسْـــبُك أنَّ الله خيـــرَ مـــتمم
لـذا كـان هـذا الشـهر فـرضٌ صـيامه بـأجلي معـاني اللفظ فـي كل معجم[1]

وهنا ننظر إلي هذه الأبيات وقد تلاحمت وترابطت في بوتقة واحدة وقد يقول قائل : إنه من الممكن تقديم بعض الأبيات على بعض وتأخير بعضها علي بعض ومعني ذلك أنه لا ترابط ولا تلاحم ويقصد بذلك التلاحم العضوي وهذا لا أقصده وإنما أقصد بالتلاحم الترابط والتوافق بين الأبيات على أى وضع كان ترتيبها، كما أقصد تلاحم التراكيب والأجزاء وتمازجها في البيت الواحد.

وإذا كانت الأبيات قد فقدت الوحدة العضوية فإنها لم تفقد الوحدة الفنية، حيث ربطت بين أجزائها وجمعت بينها في كّلَ مترابط متكامل، كالرسام الذي تتعدد ألوان لوحته وتختلفً في ترتيب استخدامه لها، ولكن النتيجة النهائية في عمله تتمثل في لوحة متكاملة لا يهم فيها أى الألوان تَقَدَّمَ وأيُّها تأخَّر.

لقد كانت ألفاظ الشاعر تتسم بالتراثية فقد أَثْرَتْ الثقافة العربية الأصلية شاعريته التى استقاها من منابعها الأصلية حيث درس اللغة العربية وتعرف على الأدب وحفظ الشعر قديمه وحديثه وذلك من خلال دراسته الأزهرية المتنوعة وقد أحدثت صلة بين نتاجه ونتاج السابقين على امتداد العصور الأدبية.

ومثال ذلك تأثره بألفاظ الشعراء السابقين الذين قرأ لهم وتأثر بهم ومنهم زهير بن أبي سلمي الذي يقول في معلقته:

ومـــن لـــم يُصـــانَع فـــي أمـــور كثيـــرة يُضَـــرَّس بأنيـــاب ويِوطـــأ بمنســـم[2]

(١) السابق ص ٨١

(٢) ديوان زهير ص ٧٧ شرح الزوزني – دار العودة – بيروت والمنسم : طرف خف البعير مثل الظفر للإنسان.

ويقول شاعرنا:

فمـا كـان للصلصـال والطـين قيمـة سـوي دَوْسِ أقـدم ووطءٍ بمنسـم[١]

وشبيه بما سبق أيضا قوله:

ران الزمـان علـى سـمعي وعـاطفتي ومـال بـالعين فـازورت مآقيهـا[٢]

واللفظ ازور قاله عنترة في معلقته وهو يصف فرسه في الحرب يقول:

فـازوَّر مـن وقـع القنـا بلبَانـه وشـكا إلـيَّ بعبـرة وتحمـم[٣]

وشبيه بما سبق أيضا لفظة: الثعلبان وردت في قوله وهو يكشف عن المجتمع الجاهلي قبل الإسلام:

هـو الإنسـان كَفَّـار ظلـوم يميـل بـه الأذي كـالأقعوان

إذا عاهدتـه يومـا تخلَّـي وراغ بطبعـه كالثعلبـان

هذه اللفظة وردت في قول القائل حين راي الثعلب يبول برأس صنم من الأصنام التى كانوا يعبدونها في الجاهلية:

أربٌ يبـول الثعلبـان برأسـه؟ ضـل مـن بالـت عليـه الثعالـب

هذا بالإضافة إلي الألفاظ القرآنية والنبوية المطهرة ومما تجب الإشارة إليه وجود بعض الألفاظ التى تحتاج من القارئ إلي معجم يكشف له عن المعني وهي قليلة.

وخلاصـة الأمـر أن مـن الظـواهر اللغويـة التـى ظهـرت فـي دراسـة ألفـاظ الشـاعر وأسـاليبه ظـاهرة اسـتلهام القـرآن الكـريم والاقتبـاس منـه ممـا أعطـي الصياغة الشعرية عنده قيما جمالية وثراء معنويا وبُعْداً روحانيا والشاعر في استلهام للنص القرآني كان على قَدْرٍ كبير من الوَعْي للقيم القرآنية والسمات الدلالية للنص القرآني مما يدل على أن له بصيرة ناقدةً وموهبةً رائعةً.

(١) ديوان فضل إسماعيل ص ٨١

(٢) السابق ص ٧١.

(٣) ديوان عنترة ص٣٠ شرح أ. كرم البستاني – دار صادر – بيروت

ومن الظواهر الأسلوبية في شعر محمد فضل إسماعيل ظاهرة التكرار بما لها من عظيم الأثر في تعميق لغة الإيقاع بكل ما تحمله من إثارة وإيماء كذلك ظهرت الحكمة عند الشاعر وَسَرتْ في شعره وَدَلَّتْ علي بصيرته النافذة وتجربته الطويلة في الحياة كذلك لغة القص والحوار والسرد القصصي وترابط الأبيات وتلاحم التراكيب فقد جاء شعره متجانسا في تراكيبه مترابطا في أساليبه مما أعطي تجاربه الكثير من سمات الجودة التى دلت على صدق الشاعر ونبل عاطفته وسمو تجربته، مما طبع شعره بالجودة الفنية والأصالة التعبيرية.

ثانيا : الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية جزء مهم من أجزاء العمل الشعري فهي " ركن كبير وعنصر جليل من عناصر الأدب الذي هو التعبير بأسلوب جميل عن عاطفة "الأديب" [١] وعلي ذلك "فالصورة الشعرية واحدة من الأدوات الأساسية التى يستخدمها الشاعر الحديث في بناء قصيدته وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية فبواسطة الصورة يشكل الشاعر أحاسيسه وأفكاره وخواطره في شكل فني محسوس وبواسطتها يصور رؤيته الخاصة للوجود وللعلاقات الخفية بين عناصره " [٢].

وتعطي للتعبير إضاءات خاصة تعبر عن أحاسيس الشاعر وخواطره كما تتمثل أهميتها في الطريقة التى تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعني ونتأثر به[٣]

وحين ننظر إلي الشاعر محمد فضل إسماعيل فإننا نجده يستمد رؤاه من نبع القيم الإسلامية والمبادئ الإيمانية حتي لنجد شعره نسيجا واحدا متلائما متلاحما يقوم على أمر الدعوة والإرشاد ونبذ السلوك المعوج ونقد سلبيات المجتمع فالرأي صار للجبان واليأس دب في كل النواحي والعدوان والبغي عمَّ كل الأرجاء حتي الأكواخ، وانقلبت الأمور والموازين، حتي أصبح صاحب الحق غريبا عن الدنيا يُعاني ما يُعاني، ففي القرآن الكريم بُغْية كل إنسان ويا ليت الجميع يحتكمون إليه. يقول الشاعر في قصيدته : (أبا الزهراء إن الأرض شاهت):

أبا الزهراء إن الأرض شاهت ... وصار الرأي فيها للجبان
ودبَّ اليأس في كل النواحي ... وخيَّم فوقها نسَج الهوان
ففي الأكواخ عدوانٌ وبغيٌ ... وما سلمت من الجشع المغاني
وأصبح كل ذي حق غريبا ... عن الدنيا يعاني ما يعاني
وفي الإسلام لو علموا كتاب ... كفيل بالعدالة والضمان

(١) مدارس النقد الأدبي الحديث د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٥٥ – الدار المصرية اللبنانية.
(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. عشري على زايد ص ٦٨ الطبعة الثانية ١٩٧٩ مكتبة دار العلوم.
(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي د جابر عصفور ص ٣٦٣– دار المعارف المصرية.

فتحـــت المشـــرقين بـــه فكانـــا كمـا ترضـي.... ودان المغربـان[1]

وهنا نلاحظ اعتماد الشاعر – في كشفه عن هذه الصورة على الاستعارة المكنية أو ما يُسمي بالتشخيص حيث جعل اليأس إنسانا يَدُبُّ في كل النواحي وكذلك أعطي لنسج الهوان ما للإنسان من حركة وسكون، مما يدل على سيطرة روح اليأس والهوان على كل النواحي وكذلك سيطرة روح العدوان والظلم والبغي والجشع، وضيق الشاعر مما يحدث في مجتمعه من سلبيات لا يرضي عنها أحد كل هذا كان في مجتمع وحشي دنيء لا ضمير يؤنبه ولا وازع يزجره يفعل كل المحرمات ويُبَطن غير ما يُظْهر يقول:

هـــو الإنســـان كفـــارٌ ظلـــوم يميـــلُ بـــه الأذي كـــالأُفعوان
إذا عاهدتـــه يومـــا تخلَّـــي وراغ بطبعـــه كالثُّعْلبـــان
أعـــوذ بعفـــوك اللهـــم ممـــن يُكِّـــنُ ضـــميره غُيْـــرَ العيـــان

نفـــوسٌ لا يُؤَنِبُهَـــا ضـــميرٌ تســـف بهـــا قـــذارة الامتهـــان
وشـــعب كـــان وَحْشـــياً دنيئـــا فهـــذا آثـــمٌ وأخـــوهُ جـــان
فمـــن وأد البنـــات إلـــي عنـــاد إلـــي شَـــغَب إلـــي حـــرب عـــوان
ومـــن ظُلـــم يُطـــيح بأبريـــاء إلـــي تكـــد إلـــي هـــمِّ الزمـــان
ومـــن نُصُـــب وأزلام وخَمْـــرٍ إلـــي أشـــرٍ وكـــذاب وزان
إلـــي وَثَـــنٍ قـــد اتخـــذوه ربـــا ومـــا للصـــخر فـــي عمـــل يـــدان
أولئـــك أُمـــةٌ كفـــروا وضـــلوا ولجُّـــوا فـــي الضـــلال والافتتـــان[2]

ولا يخفي على الناظر إلي هذه الصورة ما فيها من حسن التقسيم أو المقابلة، حيث كشفت عن الحياة الهمجية التى كان يعيشها هؤلاء الجاهليون. من وأدِ البنات والعناد والشغب والحرب المستعرة لأَتْفَهِ الأسباب، والظُلْم، ظُلْم النفس والغير، والنُصُب والأزلام والخمر والكذب والزنا والأوثان وما شابه ذلك.

(١) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٦٤
(٢) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٦٤، ٦٥

وننتقل إلي صورة أخري في معرض حديث الشاعر عن زفاف آمنة بنت وهب (رضي الله عنها) وعبد الله بن عبد المطلب (رضي الله عنه) وحمل آمنة (رضي الله عنها) رسول الله (ﷺ) وهي صورة تعتمد على التشبيه الرائع والاستعارة المكنية الكاشفة عن تغُّير الكون وتحوُّله من الظلام إلي النور، ومن الظلم إلي العدل ومن العذاب إلي الرحمة ومن الذلة إلي العز يقول:

زُفَّتْ إلي جَنْب عبد الله آمنة ... في موكب بجلال الله مزدهر
وكان أن حملت نورا كما لبست ... من السعادة ما شاءت من الأزر
وجاد مكةَ صوبُ الغيثِ فانتعشت ... وبارك الله فيها طيب الثمر
وصافحتها ليالي العز خالصة ... فما تقيم على ضَيم ولا كدر
وهكذا كان هذا الحمل مرحمة ... للعالمين بدت في أجمل الصور[1]

ولا يخفي ما في هذا التصوير الرائع من تشبيه بليغ وتشخيص جميل، فقد شبه الشاعر السعادة التى عَمَّتْ السيدة آمنه (رضي الله عنها) حين حملت برسول البشرية (ﷺ) بالإزار الذي يُلبس علي سبيل الاستعارة المكنية وهذا للدلالة على أن هذه السعادة قد غمرت السيدة آمنة (رضي الله عنها) من جميع أنحائها، كيف لا وقد غيَّر مجيئُهُ (ﷺ) البشرية كلها وغيَّر حالها من الأسوء إلي الأفضل فبارك الله (عز وجل) مكة والزروع والثمار وأنزل عليها الغيث بعد الجدب والقحط، فصافحتها ليالي العز خالصة فما عاد فيها ذل ولا كدر وهنا نلحظ الاستعارة المكنية أو التشخيص في البيت : (وصافحتها ليالي العز خالصة... ألخ) حيث جعل ليالي العز إنسانا له أيدٍ يُصافح بها مما يدل على تغيُّر حال مكة من الذلة إلي العزة ولا يخفي أيضا أن الشاعر في هذا التصوير الرائع قد اعتمد على أسلوب الخبر.

كذلك نجده يصور دار أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في قصيدته (حديث الهجرة) تصويرا رائعا، فحين زار رسول الله (ﷺ) أبا بكر ليُعْلَمه بأمر الهجرة فرحت

(١) السابق ص ٢٨

الدار وإضطربت فرحا لقدوم رسول الله (ﷺ) إليها، وانبري أبو بكر(رضي الله عنه) مسرعا ولم ينتظر استجابة لأمر رسول الله (ﷺ) وفي هذا دلالة علي حبه الشديد لرسول الله (ﷺ) وفي هذا التصوير اعتمد الشاعر على التشخيص أو الاستعارة المكنية في تصويره للدار وعلى الحقيقة في كشفه عن حال أبي بكر (رضي الله عنه) حين زيارة الرسول (ﷺ) له يقول الشاعر:

هشَّتِ الدارُ وماَ جتْ طرباً ... وانْبَري الصِّدِّيق لم ينتظر
قال: فادخل قال: أخشي الحربا ... فاصرف الأغيار واكتم خبري
إنَّ في أمري لسراً عجبا ... إذْ أري نفسي أمام الخطر
قال : فادخلْ لا أري من حرج ... إنهم أهلُكَ عند النُّوَب
يفتدون المصطفي بالمُهَجِ ... مرحباً فادخلْ ولا تكتئب[1]

كذلك يكشف لنا الشاعر عن صورة الرسول (ﷺ) المتكاملة، صورة أغلي إنسان على الوجود، فهو الأمل والإخلاص والوفاء، ومفرح المحزون وباعث السعادة والفرح في جو الحزن والأسي، وهو لسان كل شاك وأسير يقول:

يا ابن عبد الله أنت الأمل ... أنت للإخلاص أعلي مثل
أنت سِّر للهدي متصل ... أنت حلي المجد عند العطل
طبت نفسا حيث طاب العمل ... فاحتواك الجاه بين الرسل
أنتَ للمحزون سلوي إن بكي ... أنت روح في ليالي الكرب
أنت للعاني لسان إنْ شكا ... لك عند الله خَير الرُتَب[2]

ولا يخفي علينا ما في هذه الأبيات من تصوير رائع اعتمد فيه الشاعر على التشبيه البيلغ والتصريح الرائع والاستعارة البارعة، حيث شبه المجد بالجيد (العنق الذي يوضع عليه الحلي) وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية،

(١) السابق ص ٣٢
(٢) السابق ص ٣٩

فالرسول (ﷺ) حُلَي هذا المجد في جميع الأحيان وبخاصة حينما يُعَطَّل هذا المجد من الحُلِيّ والزينة.

وحين يتحدث الشاعر عن غزوة بدر وعن المشركين وَحَميَّتهم للجاهلين يكشف عن صورتهم وقوة تمسُّكهم بضلال الجاهلية مع معَرفتهم بسماحة الإسلام وتهذيبه للنفوس وتربيته لها يقول:

ما عابهم غير أنْ كانت حميتهم للجاهلية لا تخلو من الريب
تشبثوا بجذوع الكفر ما رجعوا لما تبيَّنَ في الإسلام من شذب
جاء النبيُ بدين الله وابتدأوا يستعرضون صنوف الحرب والضرب
ضاق النبي بهم ذرعا وجاهدهم ويح العداوة كم جاءت من العصب[1]

وهنا يعتمد الشاعر في كشفه عن المعنوي على المحسوس المادي، يعتمد في كشفه عن صورة الكفر على التشبيه المحسوس، حيث يشبه الكفر (المعنوي) بجذوع الشجر (محسوس) مما يدل على شدة استفحال الكفر ووصوله إلي مرتبة قوية لم يصل إليها من قبل، فقد صار قوياً كبيراً ضخما كالشجرة الكبيرة الضخمة التى ضَرَبَتْ جذوعها في الأرض وتمكنت من الأرض تمكنا كبيرا، فهولاء تمسكوا بقوة في جذوع الكفر ولم يرجعوا عماهم فيه وعماهم عليه من ضلال وكفر ولم يبالوا مع معرفتهم بسماحة الإسلام وتعاليمه. وهذا على سبيل الاستعارة المكنية.

وحين ننظر إلي الشاعر في قصيدته: (أراد ربك خيرَ الناس) نجده يكشف لنا كشفا رائعا عن صورة الطبيعة الساحرة الآخذة بالألباب الفاتنة للقلوب والأبصار، حتي يصل إلي حَدِّ التشخيص، حيث يجعل من هذه الطبيعة الساحرة أناسا آخرين تدور بينهم الحركات والهمسات والمداعبات، فكم للنسيم من دعابات مع الغصون، وكم للزهر من نفحات بنشرها في الأصال، وكم للروض من موسيقا تبعثُ لحنَ الطبيعة، كم للأغصان من همسات يُجادلها صوت الحفيف، وكم يفيض النَهر من تحت هذه الأغصان فيداعبها حينا وآخر بصافي الود يَسْقيها، يشكو فتسمع أنَّاتٍ

(١) السابق ص ٤٠

مُرَّجعة من الحَرير كولهان يُناجيها، وكم للطير من احتيال وتبختر وغناء في هذه الحديقة الغَنَّاء وهذه الرياض الساحرة، تَشدو بأعذب الألحان فرحا وسرورا يقول الشاعر:

سِّرْ في الخمائل وانْظُر في نواحيها ... فالحسنُ كالسحر من أجلي معانيها
كم للنسيم دعابات إذا خطرت ... على الغصون رأيت السحر يَثنيها
والزهر ينشر في الأصال نفحته ... فيملأ النفس آمالا ويُحييها
والروض تصدح موسيقاه باعثة ... لحن الطبيعة جلَّ الله باريها
إذا تهامست الأغصان جاوبها ... صوت الحفيف فزادت في تصبِّيْها
وفاض من تحتها نَهْرٌ يداعبها ... حينا وحينا بصافي الود يسقيها
يشكو فتسمع أنات مرجعة ... من الخرير كولهان يناجيها
والطير يختال في أنحائها طربا ... يشدو بأعذب لحن من أغانيها
كأنَّ داودَ بالمزمار أَرْسَلَهُ ... إلي الحياة بصوتِ الحقِ يشجيها
فاسْتَوقف الطير واسمع ما يردده ... على المزاهر فوق الأيك شاديها
فالشعرُ من لغة الأطيارُ مقْتبس ... والشعر دنيا هديل الوُرْقِ يحدوها[1]

وفي نفس هذه القصيدة يكشف لنا الشاعر عن صورة البشر في الجاهلية فالدنيا مشوهة تارة ينشرها الجهل وتارة يطويها الكفر والأرض فيها مذبحة والناس فوضي كشاة غاب راعيها يعتدي القوي على الضعف والكبير على الصغير والغني على الفقير لا عقل يحكمهم ولا ضمير يردعهم، فالظلم تطغي شهوته على كل شيء وعلى جميع الأهواء، كالخيل الجامحة لا يلويها شيء، ولا حقوق تؤدي إلي أصحابها، ولا العدالة تُرْجَي حين يدعوها أحد، في كل هذا الشوك وهذا الشر قد نبتت ريحانة الدين التى يرويها ماءا الطُهْر.

يقول الشاعر:

(١) الديوان ص ٥٥

يـا مهـبط الـوحي والـدنيا مُشَـوَّهة الجهــلُ يَنْشُــرها والكفــر يطويهــا
فـي الجاهليـة حيـث الأرض مذبحـة والنـاس فوضـي كشـاة غـاب راعيهـا
والظلـم تَطغـي علـى الأهـواء شـهوته كالخيـل إنْ جمحـت لا شـئ يلويهـا
فــلا الحقــوق تُــؤدَّي حــين تطلبهــا ولا العدالــة تُرْجَــي حــين تــدعوها
فـي ذلـك الشـوك والهـالوك قـد نبتـت ريحانــة الــدين مــاء الطهــر يرويهــا
وَفُوجِيُ الكفر فـي الأوثـان فاندرست وعفــا الــريح مــا أبقــت لياليهــا
أراد ربــك خيــر النــاس فانقشــعت ســحابة الجهــل وانجابــت دياجيهــا
فــلا يغــوث إذا نــادت بناصــرها ولا يعــوق إذا صــاحت بآســيها
ولا منـــاة ولا العُـــزَّي ولا صَـــنَمٌ ممـــا أرادوا بـــه الله تشـــبيها[1]

وهنـا لا يخفـي اعتمـاد الشـاعر فـي هـذه الصـورة علـى المقابلـة والاسـتعارة المكنية والتشبيه البليغ والتشخيص والكناية، فقد اعتمد الشاعر على كل هذه الأجزاء الرائعة في تحقيق صوره البليغة البارعة.

(١) السابق ص ٥٥، ٥٦

ثالثا : **الموسيقي الشعرية والإيقاع**

لا شك في أنَّ الوزن " هو أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية " [١]ولقد تحدث العلماء كثيرا عن الوزن فقدموا له تعريفات جعلته الفارق الوحيد بين الشعر والنثر، وعلي كل حال فهذه التعريفات بَيَّنَتْ أَثر الوزن في الشعر ومكانته منه.

وإن كان النقاد العرب قد تنبهوا لأهمية الوزن وقيمته الكبري في الشعر فإن النقاد الأوربيين أيضا تبنهوا لذلك ورأوا أن "الوزن ينزع إلي زيادة الحيوية والحساسية في المشاعر وفي الانتباه" [٢]

وأن الوزن أيضا " يفعل في نفس السامع فَيُغَيِّر فهمه لما يقرأ"[٣]

ومما تقدم تبين لنا اهتمام النقاد بالوزن والأثر الأكبر الذي يسبغه على الشعر والوزن في شعرنا العربي هو " مجموع التفعيلات التى يتألف منها البيت وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة "[٤]

وللوزن في شعرنا العربي أثر كبير يظهر أثره على المستمع سواء أكان متعلما أم أميا "فالقارئ الكاتب يعجب عادة بمعاني الكلام أكثر من إعجابه بوقعه في الأسماع، في حين أن الأُمي يستجيب أولا لرنين اللفظ ونغمة وقد ينفعل ويتأثر به تأثيرا قويا، وإن خلا من جمال في مضمونه ومعناه" [٥]

وهكذا أُعجب النقاد العرب بالشعر الذي يحتوي على موسيقي داخلية مع الموسيقي الخارجية وقد دل على ذلك نظراتهم المتأنية في الشعر العربي ونقدهم له، حيث عدوا من عيوب أوزان الشعر التخليع وهو "أن يكون قبيح الوزن. وقد أفرط قائله في تزحيفه" [٦]

---

(١) العمدة لابن رشيق ج١/١١٣ تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م

(٢) مبادئ النقد الأدبي ريتشاردز ص ١٩٨ بترجمة لويس عوض – الأنجلوا المصرية. ١٩٦٣

(٣) الأديب وصناعته ص ١٠٩ (مترجم) بدون تاريخ – بيروت

(٤) النقد الأدبي الحديث د محمد غنيمي هلال ص ٤٣٦ – نهضة مصر سنه ١٩٩٧م

(٥) دلالات الألفاظ : إبراهيم أنيس ص ١٩٣– طبعة أولي ١٩٥٨ الأنجلو المصرية

(٦) الموشح للمرزباني /١٢ تحقيقي على محمد البجاوي

والترصيع أيضا وهو "أن يتوخي فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو جنس واحد في التصريف كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم" (١)

وروعة الموسيقي لدي الشعراء تكمن في القدرة الفائقة على انتفاء الأساليب والألفاظ واختيار أعزب ما فيها من ألحان وأصفي ما فيها من أنغام إلي جانب قدرة الشاعر على قياس الموجات الصوتية للوحدات الموسيقية البسيطة (الأسباب والأوتاد) ومزج الأنغام والأصوات في تآلف بديع يأخذ بالألباب ويستهوي النفوس فتهتز في طرب وانتشاء وتتماوج في ابتهاج وارتياح (٢)

والناظر في الشعر الديني لمحمد فضل إسماعيل يجد أن جملة ما تناولته هذه الدراسة

إحدي وعشرون قصيدة في ديوانه : " محمد فضل إسماعيل... شاعر السويس" وقد جاء بحر البسيط في المرتبة الأولي إذ استخدمه الشاعر تاما في ثماني قصائد ومجزوءا في قصيدة واحدة (مخلع البسيط)

ويحتل بحر الرمل المرتبة الثانية في استخدام الشاعر للبحور الشعرية فقد استخدمه الشاعر في أربع قصائد ثم يأتي بعد ذلك بحر الوافر ليحتل المرتبة الثالثة، ثم بحرا الكامل والطويل ليحتلا المرتبة الرابعة، ثم يأتي بحر الخفيف ليحتل المرتبة الخامسة والأخيرة.

وأري أن الشاعر كان يميل إلي البحور الطويلة لما فيها من نفس طويل وامتداد موسيقي يلائم قيمه الإيمانية المتوهجة وعواطفه الدينية المتأججة، ودعوته الإسلامية الخالصة.

(١) نقد الشعر لقدامه بن جعفر ص ٣٢ تحقيق كمال مصطفي.
(٢) القرضاوي شاعر إسلاميا د. يحي محمد أحمد عيد ص ٣٥٩

• موسيقي القافية:

أما من ناحية القافية فهي " أهم أجزاء البيت الشعري، لأنها مصدر الموسيقي، ومنشأ النغم والطرب في القصيدة، حيث يستمتع القارئ أو السامع بترددها عليه في انتظام في نهاية كل بيت من أبيات القصيدة (١) وهي ركن مهم من أركان الشعر العربي، وهي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر العربي " ولكلمات القافية صلة بموسيقي البيت، والقافية في الشعر العربي ذات سلطان يفوق ما لنظائرها في اللغات الأخري، إذا أن بعض اللغات يخلو من القافية" (٢).

ولذا فقد اهتم بها الأقدمون والمحدثون فدرسوها، وجعلوها علما يدرس أو موضوعا ذا أهمية يدُرس، وجعلوا لها تعريفات خاصة مع دراستهم لموسيقي الشعر العربي. إلاَّ أن هؤلاء الدارسين اختلفوا في تحديدها في العمل الشعري، فمنهم من رأي أنها آخر كلمة في البيت الشعري، ومنهم من راي أنها الحرف الأخير الذي تُبْنَي عليه القصيدة وهو الروي، ومنهم من رأي أنها كل شيء لزمت إعادته في آخر البيت الشعري، ومنهم من راي أنها آخر ساكنين في البيت الشعري وما بينهما والمتحرك الذي قبل الساكن الأول (٣) والغالب أنها هي الأصوات التي تتكرر في أواخر أبيات القصيدة، وعلى ذلك تكون حرفا واحدا وهو الروي أو حرفين أو ثلاثة أو تزيد على ذلك كما ظهر عند أبي العلاء المعري في لزومه ما لا يلزم.

والقافية تتألف من عدة حروف هي : الروي والوصل والخروج والردف والتأسيس والدخيل. والروي : هو الحرف الذي تبني عليه القصيدة وتسمي به أو تُنْسَبْ إليه فيقال ميمية أو دالية وهكذا.... والوصل : حرف مد (واو أو ألف أوياء) يلي الروي المتحرك فيكون ألفا بعد الفتحة وواو بعد الضمة وياء بعد الكسرة وهاء ساكنة أو متحركة تلي الروي والخروج: حرف مد ناتج عن إشباع حركة هاء الوصل، والردف: حرف مد أولين يقع قبل الروي مباشرة بلا فاصل، والتأسيس ألف

(١) أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتجويد د. محمد حسين عبد الحليم ص ١٧٩ – ط أولي سنه ١٩٩٤م.
(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٤٤٢
(٣) في علمي العروض والقافية د. أمين السيد على ص ١٧٣ – دار المعارف

بينها وبين الروي حرف متحرك يسمي الدخيل، والدخيل : حرف متوسط بين الروي والتأسيس (متحرك)[١].

والملاحظ في قصائد شاعرنا الدينية اعتماده فيها على القافية المطلقة بنسبة كبيرة جدا بنسبة ٩٥% والمقيدة بنسبة ٥% وقد كان ذلك نتاجا طبيعيا لتوهج عاطفة الشاعر حيث استراح إلي إطلاق القافية لما فيه من إفراغ شحنته الانفعالية والتنفيس عن غيرته الإيمانية والكشف عن نفسه الزاهدة والروح الإيمانية المتعلقة بربها سبحانه وتعالي، فهي روح متصلة بربها لا تنفك عنه، حيث لا ملجأ منه إلا إليه، يلجأ الجميع إليه وحده، فهو سبحانه عنده ما يرجوه الجميع وعنده سبحانه وحده تخفيف البلوي.

رُدُّوا زحـــارفَ دنيـــاكم وجافوهـــا ... فكـم أضـرت بنـا الـدنيا وأهلوهـا
مـن غَـرَّهُ العـرضُ الفـاني وأعْجَبَـهُ ... صـفوُ الحيـاة قضَـي الأيـام مشـدوها
جَرَبْـتُ مـن حُلْوهـا مـا راح يُطربنـي ... وذُقْـتُ مـن مرهَـا مـا كـان مكروهـا
فمـا نَـدِمْتُ علـى شـيء ولا دَمِعَـتْ ... عينـــاي إلاَّ علـــى نفســـي أُعَزِّيهـــا
يـا نفس مـا أنـتِ والدنيا وقد سخرت ... منـــك المقـــادير وامتـــدت عواديهـــا
تَنكَّـر الأهـلُ والأصـحابُ وانقشـعت ... لـك القلـوب التـى ارتـدت نواحيهـا
مـاذا تريـدين بعـد اليـوم مـن نفـر ... كانـــت عهـــودهم إفكـــا وتمويهـــا
ران الزمـان علـى سـمعي وعـاطفتي ... ومـــال بـــالعين فـــازوَّرت مآقيهـــا
حتـــي تجهَّمـــت الأقـــدار وانكســـرت ... منـي عصـا كنـت فـي ضـيقي أُرَّجيها
فـلا الريـاض ريـاض إنْ هـي ابتسمت ... ولا الغصـــون غصـــون فـــي تثَّنيهـــا
ولا البلابـــل والأَطيـــار إنْ صـــدحت ... نبـــرات شَـــدْوٍ وإنْ رَنَّـــتْ أغانيهـــا[٢]

وهنا يتسع بحر البسيط بما فيه من طول واتساع ليقيم موسيقاه الخارجية والداخلية، يتسع لبث خلجات الشاعر وآهاته فقد تنكر الأهل والأصحاب وتغيرت

(١) موسيقي الشعر د، إبراهيم أنيس ص ٢٤٨ – طبعة خامسة – الأنجلو المصرية
(٢) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٧١

النفوس وتبددت العهود وصارت إفكا وتمويها، وتجهمت الأقدار، وانكسرت عصاه التى كان يدخرها لوقت الضيق، ولم تعد الرياض كما هي ولا الغصون غصون في تثنيها،

ولا البلابـلُ والأَطيـار إنْ صَـدَحتْ نبـراتُ شَـدْوٍ وإنْ رَنَّـتْ أغانيهـا

ومن الجدير بالملاحظة في أمر القافية التزام الشاعر بعمودية الشعر في كل قصائده.

أما عن الموسيقي الداخلية فهي لا تقل أهمية عن الموسيقي الخارجية حيث تُشَكِّلْ معها وحدة موسيقية هي القصيدة الشعرية بنظامها الموسيقي الكامل وتتمثل هذه الموسيقي (الداخلية) في أمرين هما : الموسيقي الداخلية الخفية والموسيقي الداخلية الظاهرة وتتمثل الموسيقي الداخلية الخفية في حروف المد وتكرار حروف معينة وألفاظ معينة وتراكيب معينة وعلاقة ذلك بإحداث نغم معين، واختيار ألفاظ ذات إيحاء وظلال والتلاؤم بين اللفظ والمعني وبين الألفاظ وبين حروف الكلمة الواحدة وتوالي الحركات في الكلمة الواحدة وتتمثل الموسيقي الداخلية الظاهرة في فنون علم البديع أو في المحسنات البديعية مثل : التصريع والترصيع والتقسيم والجناس والتضاد وما شابه ذلك.

ونقدم نموذجا للموسيقي الداخلية الخفية والمتمثلة في التكرار قول الشاعر:

سـلام يـا حبيـب الله يبقـي ليـوم الحشـر يضـمن لـي المآبـا
سـلام يـا محمـد فـي صـلاة مـن المـولي تجنبنـي العقابـا
سـلام يـا أعـزَّ الخلـق جاهـا وأعظمهـم وأرفعهـم جنابـا
ألـم يشـرح لـك الـرحمن صـدرا ألـم يُلهمـك فـي الـرأي الصـوابا
سـلام صـاحب الإسـراء إنـي بشـعري جئـت الـتمس الثوابـا[1]

وهنا نلحظ تكرار الحروف والكلمات وحروف المد ومن هنا فقد تمكن الشاعر من حسن اختيار الألفاظ واتساق الأساليب في شعره، وتخير ألفاظه التى

(١) السابق ص ٥٤

عبَّرت عن مشاعره بصدق ويُسر وسهولة واتساق مع العاطفة التى أثرت التجربة، وقد مكنه من ذلك موسيقية الألفاظ في اللغة العربية الشاعرة.

وها هو نموذج آخر على اختيار الشاعر لألفاظ ذات إيحاء وظلال وتلاؤم بين الكلمة والأخرى وبين الحروف والأساليب يقول في قصيدته : (أبا الزهراء إن الأرض شاهت):

أَطَلْتُ الصمتَ فاتهموا بياني ... وعِفْتُ اللغو فاتهموا لساني
وغالبت الشجون فقيل ماتَتْ ... عواطفه... وعاش بلا جَنَانَ
وما أنا بالذي تلقاهُ يَهْذي ... وينطق دون وَعي واتزان
ولا أنا بالمدلّه في غرامي ... فتملك كل غانيةً عناني
ولكن عازفٌ لم يلق عوداً ... يَهيْجُ رنينَهُ طرف البنان
وشاعرُ أمةٍ لم يلقَ فيها ... سويَ غصص وأحداث روان
وصبٌ ذابَ في الدنيا حنينا ... فلم يَظْفَرْ بُقَرب أوْ تَدَان
فأخفيتُ الهوي وكتمتُ حُبيِّ ... وطاوعتُ السُكون فما عصانيَ
وكم في الصمت من آيٍ فصاح ... وكم في الصمت من بكر المعاني

****

فيا قلمي عَدِمْتُكَ يوم تَلْهُو ... ويا شعري اْطَّرِحْ ذِكْرَ الحسان
وَهُزَّا هذه الدنيا وصُوْغا ... تحياتي قلائدَ من جُمانَ
وخُصَّا خير مبعوث بآي ... يرددها المدي والخافقانَ
فباسم محمد بسمتْ ليالٍ ... وباسم محمدٍ صُغْتُ الأمانيَ
وعند محمدٍ ألقيتُ رَحْلي ... وفيه نظمتُ ساحرة الأغانيَ

****

محمـــدُ أنـــتَ للـــدنيا ضـــياءٌ وأنـــتَ مثالهـــا فـــي كـــلِ آن
وأنـــت كمـــا أراد الله نـــورٌ وروحٌ لـــيس ييـــأس منـــه عـــان
خُلقْـــتَ فكنـــتَ للرحمـــوت ظـــلاّ ورُكْنـــاً للهدايـــة والأمـــان
بُعِثـــتَ بـــدين ربـــك حيـــثُ تبنـــي صـــروحَ الحـــقِ فيمـــا أنـــتَ بـــان
فلـــم تـــركنْ إلـــي خـــورٍ ولكـــن حَمَلْـــتَ العِـــبءَ وَحْـــدَكَ غيـــر وان
ولقنـــت الحيـــاة أجـــلّ درس تصـــافح بعـــده المتخاصـــمان
حـــوي آدابـــه القـــرآن ســـفرا[1] لهـــذا النـــاس مـــن قـــاس ودان

وهنا نجد الشاعر قد تَخيَّر ألفاظه أحسن اختيار فأبان عن تجربته، وأفصح عن عاطفته في انسياب موسيقي حافل كَمُنَ في مقاطع الكلمات وتكرار بعض الحروف مثل حروف العطف وحرف النون إلي جانب تكرار بعض الألفاظ إلي جانب حروف المد واللين فضلا عن إطلاق القافية، بالإضافة إلي تلائم الألفاظ وتجانسها، لقد أعطي كل ذلك أبعادا موسيقية متنوعة يهتز لها القارئ ويفتتن بها السامع وإذا أردت أن تُغير لفظاَ بلفظ من عندك لاصطدم به السمع واختل البناء الموسيقي للنص فمثلا لفظتا (عَدِمْتُكَ واطَرِّح) بما لهما من بُعْد موسيقي وإيحاء معنوي حيث يقول الشاعر:

فيـــا قلمـــي عـــدمتك يـــوم تلهـــو ويـــا شـــعري أُطـــرِّح ذكـــر الحســـان

إذا غيرنا اللفظتين وعدلنا البيت إلي الصورة التالية:

فيـــا قلمـــي فقـــدتك يـــوم تلهـــو ويـــا شـــعري دع ذِكْـــر الحســـان

وجدنا أن البيت قد خرج عن معناه وموسيقاه حيث نَبَتْ اللفظتان عن موضعهما ووقعهما ورنينهما كما فقدنا روح الإيحاء وأثره المعنوي وهذا إن دل فإنما يدل على أن لكل لفظة موقعا وعمقا ولكل مفردة وقعا وبُعْدا.

(١) السابق ص ٦٣، ٦٤

ومن صور الإيقاع المثيرة (الخاصة بالموسيقي الداخلية الظاهرة) في شعر محمد فضل إسماعيل الترصيع وقد اعترف به النقاد قديما وبقيمته في الأداء الفني ولذا عرَّفه قدامه بن جعفر في كتابه : (نقد الشعر) بقوله: "هو أن يتوخي فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد من التصريف كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم" [١]وهو أيضا " ضرب من الإيقاع الصوتي والانسجام الموسيقي الذي يسيطر بنغمه على الحس السمعي ويستهوي القلوب بمعانيه مما يشهد لصاحبه بمهارة نسج المفردات وبراعة نظمها. [٢]

ومثال ذلك قول الشاعر في قصيدته : (أراد ربك خير الناس[٣]) كاشفا عن حال الجاهلية:

فلا الحقوق تؤدي حين تطلبها ولا العدالة تُرْجي حين تدعوها

وقوله في نفس القصيدة:

فلا يغوث إذا نادت بناصرها ولا يعوق إذا صاحت بآسيها

وقوله في نفس القصيدة أيضا:

يا مهبط الوحي والدنيا مشوهة الجهل ينشرها والكفر يطويها

وقوله عن معجزة القرآن الكريم في قصيدته : (استقبال رمضان) [٤]

هذا كرم سماوي له أدب عال وما هو موضوع ومفتعل

فليس شعرا ولا نثرا ولا فقرا ولا أساطير مما يحمل الدجل

كذلك اعتمد الشاعر في موسيقاه الداخلية على فن التصريع والتصريع في الشعر هو " تقفية المصراع الأول وهو يشبه مقدمة موسيقية خفية قصيرة تلهب إحساسنا" [١]

(١) نقد الشعر ص ٣٢.
(٢) القرضاوي الشاعر إسلاميا ص ٣٧١
(٣) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٥٥، ٥٦
(٤) السابق ص ٧٧

ومثاله قوله في أول قصيدة التضحية والفداء [٢](متحدثا عن قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام)

عيدنا الأضحي هو العيد الكبير فيه بالآمال قد طاف البشير

وشبيه به أيضا قوله في أول قصيدة : (في منزل الوحي) [٣]

سبحان من علم الإنسان بالقلم ما ليس يعلم جلَّ الله ذو الكرم

كما اعتمد شاعرنا أيضا على حسن التقسيم والمقابلة ومن ذلك قوله في قصيدة : (يا حبيب الله) [٤]

يا حبيب الله يا أغلي المني يا شفيع الخلق يا نور السنا

وقوله في قصيدة (استقبال رمضان) [٥]

ففيك يا رمضان الحق منبلج وفيك للواحد الديان نبتهل

وقوله في قصيدة (أبا الزهراء إن الأرض شاهت) [٦] مصورا حياة الجاهلية:

نفوس لا يؤنبها ضمير تسف بها قذارة الامتهان
وشعب كان وحشيا دنيئا فهذا آثم وأخوه جان
فمن وأدِ البنات إلي عناد إلي شَغَبٍ إلي حرب عوان
ومن ظُلْم يطيح بأبرياء إلي نكد إلي هّمٍّ الزمان
ومن نُصُب وأزلام وخمر إلي أشر وكذاب وزان
إلي وثن قد اتخذوه رَبَّاً وما للصخر في عمل يدان

فانظر معي إلي حسن الجرس ووقع الأصوات واتفاقها وانتظامها في الأبيات السابقة مما جعل هذه الأبيات منظومة موسيقية متكاملة كل بيت فيها أشبه

(١) الشعر وإنشاد الشعر الأستاذ على الجندي ص ٣٤ – دار المعارف القاهرة سنه ١٩٦٩
(٢) ديوان محمد فضل إسماعيل ص ٨٣.
(٣) السابق ص ٦٨.
(٤) السابق ص ٦٩
(٥) السابق ص ٧٧
(٦) السابق ص ٦٤

بفاصلة موسيقية متعددة النغم متوافقة اللفظ متأخية التراكيب مما زاد الحس الموسيقي في الأبيات.

وأخيرا.... لا أزال أري أن الموسيقي الداخلية لها رنين أخاذ وأثر خطير في بناء الألفاظ والتراكيب عند محمد فضل إسماعيل في شعره حيث تتوالي الأنغام وتنساب الموسيقي في توافق وتماثل رفع من القيم الموسيقية في قصائده التى جاءت في أغلب الأحيان على البحور الطويلة ليكون فيها متسع لإفراغ شحنات العواطف الإيمانية والإسلامية لديه.

الفصل الرابع
آراء النقاد في الشاعر وشعره

لقد تعرض الشاعر محمد فضل إسماعيل لآراء النقاد في عصره، وكيف لا ينقد وقد قدَّمَ هذا التراث الشعري الهائل في ديوانه الذي بلغ ثلاثمائه وستا وتسعين صفحة تناول فيها معظم فنون الشعر العربي، وعالج فيها قضايا وطنه العربي، وعَبَّر فيها عن خلجات نفسه بما فيها من أفراح وأحزان وَآمال وَآلام وإخوانيات واجتماعيات وابتهالات دينية تعد في صف من عيون الشعر الديني.

لذا فقد اعتبره الدكتور/ مختار الوكيل والأستاذ / عامر محمد بحيري عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلي لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (من أبرز شعراء الجيل الماضي، الذي ظهر منذ أوائل العشرينات، ثم قام بحمل الأمانة، بعد أن خلا ميدان الشعر من أمرائه وفرسانه، في أوائل الثلاثينات، وما تلاها.

وقد عاش الشاعر واحدا وسبعين عاما (١٨٩٨-١٩٦٩)، جاهد خلالها جهاداً مريراً في سبيل الحصول على لقمة العيش، ولكنه مع ذلك لم ينكص عن أداء رسالته بالشعر نحو وطنه – الذي حمل القلم، كما يقول–في سبيل الذود عنه، والدفاع عن حرياته وشعراء الحرمان في الأدب العربي، قديمة وحديثه، كثيرون وقد حفل الأدب العربي يذكر أولئك الشعراء، فأورد كثيرا من قصص حياتَهم، ومن أشعارهم التى خلدوا فيها آلامهم وحرمانهم.....

أجل، لقد حفل ديوان العرب قديما وحديثا، بشعراء الحرمان. ونحن الآن بصدد الحديث عن شاعر من كبار أولئك الشعراء، الذين عاشوا في عصرنا هذا، وكان على ما ناله من منزلة وشاعرية معمورا فقد عاش محمد فضل إسماعيل عيشة أقرب إلي الأهمال منها إلي ذيوع الاسم والشهرة... كان يكدح ويُضني نفسه، ويبذل جهده، في سبيل النهوض برسالته كشاعر، على الرغم من المحن الداوية التى اكتنفت حياته... [١]".

(١) مقدمة ديوان محمد فضل إسماعيل.

نعم، يُحسب ذلك للشاعر – أن صعوبة الحياة والكَدِّ فيها من أجل الحصول على لقمة العيش لم يثنه عن القيام بأداء رسالته كشاعر نحو وطنه والدفاع عنه. كما يُحسب له تعبيره عن حياته ومجتمعه الذي عاش فيه، فقد عاش آلام عصره وآماله.

وتحسب له أيضا أنه من أبرز شعراء الجيل الماضي كما ذكر في دائرة بين وعبد الحميد الديب فهو في دائرة بينهما يعلو ليصل إلي درجة حافظ أحيانا ويعبر عن همومه وآلامه وحرمانه تعبير عبد الحميد الديب أحيانا أخري كما ذكر د. مختار الوكيل و أ. عامر بحيري.

" وظهرت ملكة الشاعر مبكرة إبان اشتعال العواطف الوطنية في ثورة ١٩١٩م إذ كان مازال في العشرين من عمره، فعبَّر أحسن تعبير بخيالَه الشاب وحماسته الفتية عن خلجات نفسه، وعن أحاسيسه تجاه وطنه:

فرعون لم يترك بمصر صغيرة إلاَّ وخلدها عَلي أطواده
عجبا ! أنرضي أن نعيش أذَلة في العالمين ونحن من أحفاده

وشاءت المقادير أن يمتد به العمر فتأتي ثورة عام ١٩٥٢م، وقد تجاوز الخمسين من عمره فانفعل بأحداثها وما كان ذلك الانفعال إلاَّ لثورته العارمة الشابة في غضون ثورة ١٩١٩م.... ولكنه كان قد نضج فكرا واستوي ذهنا وتجربة.... ومضي يُخرج لنا بين الثورتين شعرا وطنيا متأججا وأناشيد صادقة التعبير عن نفسه الصافية، حتي لقد اشترك عام سنه ١٩٣٦م في المسابقة العامة التى أقامتها الدولة لإعداد ونشير قومي وخرج من هذه المسابقة فائزاً بالجائزة الثالثة بعد نشيد الأستاذين (محمود محمد صادق) و (مصطفي صادق الرافعي).... ولُحِّنَ نشيده وعُمِمَ على المدارس وغيرها من الهيئات الرسمية وفيه يقول مخاطبا نيل مصر:

فاجر يا نيل بواديك الأمين إنَّهُ وحيٌ من السحر المبين
نوره في الدهر وضاح الجبين يَنْحَنِي في جانبيه النَيِّران
نحنُ أبناءَ الأُلِي طاولوا ملك الشهب
قد خَطَوْنا للعُلَي فوقَ أعناقِ الحِقَب

أجل، إن شعره الوطني في ثورة سنه ١٩٥٢م، إن هو إلاَّ امتداد لطاقته الشعرية الوطنية التى شُحنت في مطالع الشباب الأول، وتجلت رائعة واضحة كما رأينا في المثلين السابقين وكما نري ذلك في قصيدة قديمة ترجع إلي عام سنه ١٩١٨، حيث قال في وصف قناة السويس وهو بعد في العشرين من عمره قصيدة جيدة نال عليها جائزة (شيخ العروبة) أحمد زكي (باشا) وكانت قلما ذهبيا.... جاء فيها قوله:

يـا مُلْتقـي البحـرين كيـف تلاقيـا ... وهمـا مـن الجهتـين مختلفـان؟
يـا مهجـة الـدأماء كـم لـك مـن يَـدَيٍ ... غـرَّاء سـاطعة علـى الأزمـان
قرَبـت أقطـار الـبلاد شـمالها ... وجنوبهـا فتقـارب القطبـان
ووصـلت أشـطان التجـارة بعضـها ... بعضـا فكانـت أمْـتَنَ الأشـطان
وتعارفـتْ بـيضُ الشـعوب وسـوُدها ... مـن كـل قـاصٍ فـي الـبلاد ودان[1]

على أن عاطفة الحرمان كانت غالبة على روح الشاعر وهي التى دفعته إلي أن يُكثر من شعر المناسبات لعله يطفر بتحقيق مآربه الخاصة في الحياة كما أنَّ حرمانه وأَلمه قد انعكس بطريق غير مباشر في إخوانياته ولا سيما في دعاباته.... وكثير من شعراء الحرمان عُرقوا بالدعابة الرائعة والنكتة اللاذعة التى يتحصنون بها في مواجهة آلام الحياة... بل إن الشعوب المحرومة كثيرا ما تلجأ إبانِ مَحنِهَا إلي الدعابة والنكتة، تَنْسَي بها آلامها، وتُخَفِّفْ من وطأة ما تشعر به من ظُلْمٍ وشقاء.. وقد تجري تلك الدعابات في بعض الأحايين على ألسنة الحيوان، كما كان يفعل (إيسوب) و (لافونتين) و (عبد الله بن المقفع) في (كليلة ودمنة)... وفي مثل ذلك يقول شاعرنا:

إنـتفخ يـا هـرُّ فـي هـذا البلـد ... وامـلأ الـدنيا مـواءً إن تَـرِدْ
وتبهـنس وَقُـلْ أنـا ليـثٌ الشَـري ... لـم يكـن لـي بيـنكم كفـوا أحـدَ
مخلبـي كالنـاب مرهـوب القُـوَيْ ... يتحـداكم وشـعري كالبلـد

(١) السابق نفسه.

إنمـــا لا تـــنس إيـــلام العصـــا لا تلمنـــي أنـــت هـــر لا أســـد !(١)"

ولا شك في أن قصائده الدينية نابعةً من نفس إيمانية متصلة بخالقها (عز وجل) أيما اتصال، كاشفة عن نفس صاحبها، وعن عاطفة إيمانية قوية، استمد فيها الشاعر من المعاني الإيمانية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

" وعلي الرغم من ظروف حياة شاعرنا التي صهرتها الآلام في بوتقة الحانات، إلاَّ أنَّ الناظر في شعر فضل لا يستطيع بحال من الأحوال أنْ يغفل عن قصائده الدينية النابعة من صميم قلبه، والتى تعتبر ابتهالات وصلوات ومناجاة صادقة لاشية فيها..... بل إن الناظر في شعره يستطيع أن يضع دون تَحَرُّجْ هذه الابتهالات الدينية في صف من عيون الشعر الديني ليس في عصرنا المتأخر وحده، بل وفي عصور سوالف شاعت فيها نفحات الشعر الديني وتراتيله الرخيمة ... وها هو في حديثه عن الغارات الجوية على مدينة السويس يمزج السياسة بالدين مزجا رائعا، حيث يقول:

كانـت مخابِئُنـا التقـوي نَلُـوذُ بهـا خيـر المخـابئ مـا بالـدين نَبْنِيْهَـا
فالـدينُ حِصْـنٌ قـويٌ فـي جَوانبـه مـا ينسـف الأرض والـدنيا ومـا فيهـا
ديـنٌ بـه جـاء خيـرُ الخلـقِ يَنْشُـرُهٌ والجاهليـــةُ أشـــواكٌ بواديهـــا (٢)"

" ويمتاز شعر الديوان بديباجة قوية وأصالة لغوية وانطلاق لا تحده حدود، فالشاعر طويل النفس في شعره إلي درجة بعيدة، وقد تبلغ القصيدة الواحدة مائة بيت أو مائتين، دون أن يحس ناظمتها ضعفا أو إرهاقا والشاعر جدير بالدراسة التى تضعه وشعره في مكانه الصحيح بين شعراء الرعيل الذي كان هو أحد رواده البارزين(٣) "

(١) السابق نفسه
(٢) السابق نفسه
(٣) مقدمة ديوان محمد فضل إسماعيل

نعم، الشاعر مع هذا كله، مع قوة شاعريته ونضج فنيته وقوة ديباجته وقوة ملكاته كان مغمورا فلم تُسَلَّط عليه الأضواء، فهو جدير بأن تكْتَبَ عنه دراسات ودراسات حتي يكون قد نال حقه كغيره من الشعراء.

فلقد نقل لنا صورة مجتمعه كما هي بحلوها ومرها، فكان بذلك " مرآةً لعصره، ومرآة لآلامه وحرمانه ولقد عرف كيف يمزج آلامه الشخصية بآلام أُمته وشعبه، فخرج من ذلك مزيج جيد، أعانته عليه ديباجته القوية وحصيلته الطيبة من الألفاظ والصور البيانية، فكان شأنه إذا نظم شأن الناسج على المنوال يحرك خيوطه يمنه ويسرة في سهولة ودعة وطواعية فخرج ذلك الشعر اليسير السهل الذي قد يُخَيَّل لبعض القارئين أنه من السهل جدا أن يكتب وهو ليس كذلك في واقع الأمر ولكنه شعر أخرجته إلي السطور حاسة مُعَبِّرة ومخيلة مُفَكِّرة وحصيلة من الأدب وارفة مزدهرة.

وإنه ليسعدنا أن تقول منصفين، إنَّ محمد فضل إسماعيل حقيقٌ بأن يُسْلَكَ في دائرة يتأرجح فيها ما بين (حافظ إبراهيم) وبين (عبد الحميد الديب)... فهو يعلو أحيانا إلي مرتبة حافظ... وهو يعبر عن آلامه وحرمانه في بعض الأحايين الأُخري تعبير عبد الحميد الديب.... على أن ظروف حياته حكمته هو فكوَّنت منه ذلك المزيج أو ذلك المزاج الذي حدد شخصيته ونصَّ لها سَمْتَهَا المستقيم السَّوِّي. [1] "

– وتتلخص هذه الآراء التي ذكرها الدكتور / مختار الوكيل والأستاذ / عامر بحيري فيما يلي:

١– أنه من أبرز شعراء الجيل الماضي الذي ظهر منذ أوائل العشرينات

٢– أنه صاحب شعر وطني متأجج وأناشيد صادقة التعبير عن نفسه الصافية.

٣– أن قصائده تابعة من صميم قلبه وهي تعد صلوات ومناجأة صادقة لاشيه فيها ويستطيع الناظر وضعها دون تحرُّج في صف من عيون الشعر الديني ليس في عصرنا المتأخر فحسب بل في عصور سوالف شاعت فيها نفحات الشعر الديني وتراتيله الرخيمة.

(١) السابق نفسه

٤- أن شعره يمتاز بديباجة قويه وأصالة لغوية وانطلاق لا تحده حدود. وأنه طويل النفس في شعره فقد تبلغ القصيدة مائة بيت دون أن يحس سامعها ضعفا أو إرهاقا.

٥- أنه مزج الدين بالسياسة في شعره مزجا رائعا.

٦- أنه جدير بالدراسة وأنه مغمور.

٧- أنه ناقل لصورة مجتمعه بأشكالها المختلفة.

٨- أنه في دائرة تتأرجح فيها بين حافظ إبراهيم وعبد الحميد الديب.

٩- تأثره بأحداث العصر وتطويع شعره هذه الأحداث.

وهناك رأي لناقد آخر وهو محمد بدوي الخولي محافظ السويس، حيث يري أن محمد فضل إسماعيل شاعر كبير وأنه شاعر القوة والوطنية والحماس والأناشيد. يقول : " ومن خلال بحثي عن شخصية السويس وتراثها الأدبي، تَعَرَّفْتُ بشعر الشاعر الكبير الذي افتقدته السويس في إبان نضالها، وهو ابنها البار الشاعر محمد فضل إسماعيل، شاعر القوة والوطنية والحماس والأناشيد.

وقد وجدت في شعره معاني طيبة لاستنهاض الهمم، جديرة بأن تُطبع في ديوان، وأن تكون تجربة موفقة نستمر بعدها في جمع تراث أبناء السويس وأدبهم وشعرهم وفنونهم وألوان نشاطهم، لتصنع به مدينة السويس لنفسها تيارا يشارك في النشاط القومي العام، وفي ذات الوقت يشكل الشخصية المميزة للسويس بصلابة معدنها وبنضالها وصمودها وانتصارها الرائع المُشَرِّف وهذا التراث من وجهة أخري وسيلة من وسائل إعداد المواطنين لمعركة التحرير ولمعركة البناء إذْ يجعلهم حريصين على التمسك بشخصية وطنهم ويجعلهم جديرين بِشَرفِ الانتساب إليه والدفاع عنه وتنميته وتطويره والإضافة إليه.

والشعر كان وما زال يُثير الشجاعة ويُذْكي الحماس ويُجَسِّم الآمال ويُعِّد البشر نفسيا وروحيا وثقافيا وسياسيا لخوض المعارك، والاستبسال فيها لكسب النصر أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن والمبدأ والعقيدة.

والحق أنني وجدت في ديوان محمد فضل إسماعيل هذه الدعوة واضحة في صوت شاعر بار بوطنه وبقومه، مؤمن بنفسه وبحقه في الحياة الكريمة في أُمّةَ حرة متقدمة.

ولقد وضع بشعره هذا لبنةً في بناء الشخصية الاصلية لمدينته وكرمها وخلَّد ذكراها في أشعاره القوية المجلجلة، ورفع ذكري شهدائها الأبطال الذين ناضلوا عنها حتي استشهدوا في ساحة الشرف ومعارك الحرية.

لقد بقي أنَ تُردَ له مدينته بعض الجميل، فتخلده بين أبطالها وأعلامها وشهدائها في ديوان شعره، ليظل التكريم متبادلا بين الأبطال الشهداء والأبطال الأحياء، وليظل النضال متواصلا ومستمرا ومثمرا علي تتابع الأجيال.

ولهذا فإن محافظة السويس تحتضن شعر محمد فضل إسماعيل، وتلقاه بالحفاوة والترحيب وتحيي فيه ذكري شاعرها المجيد، وتستعيد به ذكريات بطولتها الخالدة، ليكون شركة متداولة بين الشهداء وبين الأحياء.

وأنا من موقعي في هذه الكلمة أُشجع كل نبوغ واحتضن كل زهرة تتفتح وأدعو أبنائي أبناء السويس إلي العمل، العمل المثمر المتواصل من كل قادر على العمل والإبداع والابتكار، كل في موقعه وكل في مجال قدراته ومواهبه، فإن كل عمل جاد سينال منا كل تقدير، ومن الوطن كل شكر، ومن الله سبحانه وتعالي – أولا وأخيرا – كل جزاء.

وفي ختام هذا التصدير أجدني حريصا أشَّد الحرص على أن أُقدم الشكر والتقدير لكل من فكر وشارك في جمع هذا الديوان أو أعان على تقديمه للناس، وباسم شعب السويس أُحَيِّي مجلس الثقافة والفنون والآداب على احتضان هذا الديوان، وأشكر للجنة الشعر بالمجلس حرصها على دراسة هذا الديوان وإبراز ما فيه من قيم واتجاهات جديرة بالنظر والاعتبار" (١)

- **ويتلخص رأي الاستاذ/ محمد بدوي الخولي فيما يلي:**

١- أنه شاعر كبير.

(١) مقدمة ديوان محمد فضل إسماعيل

٢- إنه شاعر القوة والوطنية والحماس والأناشيد.

٣- أن شعره جدير بأن يُطبع في ديوان.

٤- أنه وضع بشعرة لبنة في بناء الشخصية الأصيلة لمدينته.

ويري الأستاذ / الشاعر احمد مصطفي حافظ أن الشاعر تميز بفن إلقاء الشعر فهو أحد الآحاد المتميزين بذلك في العصر الحديث بلا منازع، لما له من صفات أهلته لذلك، فقد تميَّز بحنجرته القوية، وتمكنه من طبقات صوته، وبراعته في الإيحاء والإيماء، وتمثيل المعاني بالإشارات والانفعالات التى تتبدي بوجهة وحركاته المصاحبة لعلو الصوت وانخفاضه وتوسطه لأداء المعاني بدقة وإيضاح... كل ذلك كان يجعل الجمهور الغفير يحتشد بالحفل الذي يعلم أن فضلا سوف ينشد فيه إحدى قصائده... ولا تكف الأكف فيه عن التصفيق له بين الأبيات والوقفات والفقرات مستزيدة مستجيدة مستعيدة. (١)

(١) شعراء ودواوين أ/ أحمد مصطفي حافظ ص ٢٥٨ والأستاذ مصطفي حافظ أحد الشعراء المعاصرين حيث جمع ديوان الشاعر وقدم له وكتب عن حياته فقد كان صديقا له.

ـ الخاتمة ـ

وجملة القول أن محمد فضل إسماعيل من أبرز شعراء الجيل الماضي ولم يتوان عن أداء رسالته بالشعر نحو وطنه، وظهرت لديه الملكة الشعرية مبكرة إبان اشتعال العواطف الوطنية في ثورة سنه ١٩١٩ وظلت تنمو وتزداد لديه مع غلبة عاطفة الحرمان على روحه وكذلك العاطفة الدينية، حيث يمكن وضع شعره الديني دون تحرُّج في صف من عيون الشعر الديني ليس فس عصرنا فحسب بل وفي عصور سوالف شاعت فيها نفحات الشعر الديني وتراتيله الرخيمة وقد مزج بين السياسة والدين مزجا رائعا دلَّ على نفس إيمانية وروح إسلامية متحصنةٍ بالتقوى والدين فهما خير سلاح ويُحقق النصر.

وهو شاعر يملك الديباجة القوية والأصالة اللغوية والنفس الطويل إلي مدي بعيد، ومع هذا فهو مرآة صادقة لعصره ومرآة صادقة لآلامه وآلام عصره وشعبه وهو شاعر له مكانته بين شعراء عصره، لذا كان جديرا بالدراسة.

• المصـــــــادر:

- **القرآن الكريم**:

١- أوزان الشعر وموسيقاه بين الأصالة والتجديد د. محمد حسين عبد الحليم طبعة أولي سنه ١٩٩٤.

٢- دراسات في الأدب العربي والتاريخ أ. محمد عبد الغني حسن – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.

٣- دلالات الألفاظ د. إبراهيم أنيس – طبعة أولي سنه ١٩٥٨ – لأنجلو المصرية.

٤- ديوان زهير – شرح الزوزني – دار العودة – بيروت.

٥- ديوان عنترة – شرح كرم البستاني – دار صادر – بيروت.

٦- ديوان محمد فضل إسماعيل شاعر السويس – المجلس الأعلي لرعاية الفنون والآداب – القاهرة سنه ١٣٩٢ هـ – سنه ١٩٧٢م

٧- الشعر العربي المعاصر د. عز الدين إسماعيل – دار العودة – بيروت سنه ١٩٨٨.

٨- الشعر وإنشاد الشعر أ. على الجندي – دار المعارف القاهرة سنه ١٩٦٩.

٩- شعراء ودواوين أ. أحمد مصطفي حافظ – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩٠.

١٠- الصورة الأدبية د. مصطفي ناصف – مكتبة مصر – دار مصر للطباعة.

١١- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي د. جابر عصفور – دار المعارف المصرية.

١٢- العمدة – ابن رشيق القيرواني تحقيق الشيخ / محمد محي الدين عبد الحميد ج ٢ طبعة خامسة سنة ١٩٨١ دار الجيل بيروت – لبنان.

١٣- عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. عشري على زايد – طبعة ثانية سنه ١٩٧٩ – مكتبة دار العلوم.

١٤- في علمي العروض والقافية د. أمين السيد على – دار المعارف.

١٥- القرضاوي شاعرا إسلاميا د. يحي محمد عيد – طبعة ثانية سنه ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

١٦- مدارس النقد الأدبي الحديث د. محمد عبد المنعم خفاجي – الدار المصرية اللبنانية.

١٧- الموشح – المرزباني تحقيق أ. على محمد البجاوي.

١٨- النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال – نهضة مصر سنه ١٩٩٧م.

١٩- نقد الشعر – قدامة بن جعفر تحقيق أ. كمال مصطفي.

الفهرس

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
مقـــدمـــة	٦٧١
الفصـل الأول : **محمـد فضـل إسماعيـل المولـد والنشـأة والتعليم وعوامل الشاعرية**	٦٧٢
الفصل الثاني : **الدراسة الموضوعية لشعر محمد فضل إسماعيل الديني**	٦٨٧
١- إلهيات أو مناجاة وابتهالات	٦٨٧
٢- من وحي السيرة النبوية الشريفة	٦٨٨
٣- من وحي الإسلام	٦٨٩
٤- نقد سلبيات المجتمع من خلال الشعر الديني	٦٩٠
٥- مزج الشعر الديني بالسياسة	٦٩٣
٦- مزج الشعر الديني بالطبيعة	٦٩٤
الفصـل الثالـث :**الدراسـة الفنيـة لشـعر محمـد فضـل إسماعيل الديني**	٦٩٦
أولا: **الألفاظ والتراكيب**	٦٩٦
ثانيا: **الصورة الشعرية**	٧١٧
ثالثا: **الموسيقى الشعرية والإيقاع**	٧٢٤
الفصل الرابع : **آراء النقاد في الشاعر وشعره**	٧٣٤
١- رأي الدكتور مختار الوكيل والأستاذ/ عامر بحيري عضوا لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب	٧٣٨

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
٢- رأي الأستاذ/ محمد بدوي الخولي	٧٣٩
٣- رأي الأستاذ الشاعر / أحمد مصطفي حافظ جامع الديوان	٧٤١
الخاتمـــــــة	٧٤٢
فهـــرس المصـــادر	٧٤٣
فهـــرس الموضوعات	٧٤٥